

# الإيلاف في تفسير سورة ق

شرح:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

كان الله له في الدنيا والآخرة.

## مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن  
أهتدى بهداه، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله  
عليه وسلم.

أما بعد:

فإن فهم القرآن وتدبره وتعقله مما أمر الله عز وجل به قال تعالى: ﴿ أَفَلَا  
يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]،  
وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال  
تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧]، ومن هنا فإن  
أكثر القرآن سماعاً، وتداولاً، وحفظاً، وصلاة لهو المفصل بل قصار  
المفصل، وأوسطه أكثر من غيره حيث يقرأه الصغير والكبير والعالم وغيره في  
الصلوات المكتوبات، وفي النوافل والمستحبات، ويحفظونه في صباهم،  
وربما بدأوا الحفظ منه في غالب حال الناس حتى يتمرنوا على الحفظ  
والقراءة والأخذ والتلقين، وفي البخاري (٤٩٩٦) ومسلم (٨٢٢) ولللفظ لمسلم:  
عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهَيْكَ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا أَبَا  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ أَلِفًا تَجِدُهُ أَمْ يَاءٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ أَوْ مِنْ  
مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَكُلَّ الْقُرْآنِ قَدْ أَحْصَيْتَ غَيْرَ هَذَا قَالَ: إِنِّي  
لَأَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رُكْعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذَا كَهَذَا الشُّعْرِ إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ

الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ إِنْ أَفْضَلَ  
الصَّلَاةِ الرَّكُوعُ وَالسُّجُودُ إِنِّي لِأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ اللَّهِ فَدَخَلَ عَلَقَمَهُ  
فِي إِثْرِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: قَدْ أَخْبَرَنِي بِهَا.

وقد جاء تفصيل هذه السور في سنن أبي داود (١٣٩٦) ولفظه: (أَتَى ابْنَ  
مَسْعُودٍ رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنِّي أَقْرَأُ الْمُفْصَلَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ: أَهَذَا كَهَذَا الشَّعْرِ، وَنَبْرًا  
كَتَبْتَهُ الدَّقْلَ، لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ النَّظَائِرَ السُّورَتَيْنِ فِي  
رَكْعَةٍ، الرَّحْمَنَ وَالنَّجْمَ فِي رَكْعَةٍ، وَاقْتَرَبْتَ وَالْحَاقَّةَ فِي رَكْعَةٍ، وَالطُّورَ  
وَالذَّارِيَاتِ فِي رَكْعَةٍ، وَإِذَا وَقَعْتَ، وَتُونَ فِي رَكْعَةٍ، وَسَأَلَ سَائِلٌ وَالنَّازِعَاتِ  
فِي رَكْعَةٍ، وَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ وَعَبَسَ فِي رَكْعَةٍ، وَالْمُدَّثِّرَ وَالْمُرَّمَّلَ فِي رَكْعَةٍ،  
وَهَلْ أَتَى وَلَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي رَكْعَةٍ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَالْمُرْسَلَاتِ فِي  
رَكْعَةٍ، وَالذُّحَانَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ فِي رَكْعَةٍ). قَالَ أَبُو دَاوُدَ: هَذَا تَأْلِيفُ ابْنِ  
مَسْعُودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأول ما نزل من القرآن المفصل: ففي صحيح البخاري (٤٩٩٣) عن  
يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ جاءها  
عراقي فقال أي الكفن خير؟ قالت ويحك وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين  
أريني مصحفك قالت: لم؟ قال: لعلي أوّلف القرآن عليه فإنه يقرأ غير  
مؤلف، قالت: وما يضرك أية قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من

المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر:٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السورة.

**والشاهد من الحديث:** ماء جاء في المفصل من الترغيب والترهيب وكونه أول ما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فيحتاج المسلم إلى معرفة معانيه ومفرداته لا سيما مع بعد الناس عن معرفة العربية التي نزل بها، فلو سألت أحدهم عن معنى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات:١]، ما عرفها والله المستعان، والمتأمل لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في القراءة في الصلاة يعلم ذلك ولعله يأتي في موطنه فقد قرأ بالزلزلة في (الركعتين) وكان يقرأ في ركعتي الفجر بسوره (الكافرون والإخلاص).

وقرأ في بعض أسفاره في الفجر (بالمعوذتين)، وقرأ في العشاء (بالتين) و ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]، و(الانشقاق)، وأمر معاذاً أن يقرأ بوسط المفصل (والضحى) (والليل)، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس:١]، و ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١]، وقرأ في الفجر: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير:١]، و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]، و (السجدة) و(ق) وغيرها من

السور.

وقرأ في المغرب بـ: ﴿ وَالطُّورِ ﴾ [الطور:١]، ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ [المرسلات:١]، وأغلبه بقصار المفصل: ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه وكان يقرأ في المغرب بقصار المفصل وفي العشاء بوسط المفصل والفجر بطول المفصل. أخرجه أبو داود..

وقد أنكر ذلك زيد بن ثابت ولعله رضي الله عنه إنما أنكر المداومة عليها، ففي البخاري (٧٦٤): عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: ما لك تقرأ في المغرب بقصار المفصل وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بطولي الطولين؟ قال: قلت ما طولي الطولين؟ قال: الأعراف، والأخرى الأنعام، قال: وسألت أنا ابن أبي مليكة فقال لي من قبل نفسه: المائدة والأعراف.

**قال الشيخ الألباني:** صحيح (٨١٢) وهذا لفظه: وقرأ في الظهر والعصر بـ: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ [الطارق:١]، ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج:١]، ونحوها وقرأ في الظهر: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾ [الذاريات:١]، وغير ذلك.

**والشاهد من هذا الاهتمام بالمفصل:** دراسة، وحفظاً، وعملاً، وفهماً، ومن هذا الباب شرعت بعون الله وأسأله العون والتمام في تفسير بعض سورته بما أرجو نفعه لي ولغيري من المسلمين، وكانت كتابة هذه المقدمة في ١٧/ جماد الثانية/ ١٤٣٨هـ بمنزلي بالشرائع مكة حرسها الله. (عبد الحميد الحجوري).

## أَوَّلُ الْمَفْصَلِ

أختلف العلماء فقالوا: بعض سورة الحجرات، وجمهورهم على أنها ق، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة ق: وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة: إنه من (عَمَّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعترين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود في سننه، باب "تحزيب القرآن".

ثم قال: حدثنا مُسَدَّدٌ، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حبان - وهذا لفظه - عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن جده - قال عبد الله بن سعيد: حدثني أوس بن حذيفة - ثم اتفقا، قال: قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني مالك في قبة له - قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين

مستدلين - قال مُسَدَّد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا الليلة! قال: "إنه طراً علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه".

**قال أوس:** سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي خالد الأحمر، به.  
ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن يعلى الطائفي به.

**إذا:** عَلِمَ هذا، فإذا عدت ثمانية وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة "ق".  
**بيانه:**

**ثلاث:** (البقرة، وآل عمران، والنساء).

**وخمس:** (المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة)

**وسبع:** (يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل).

**وتسع:** (سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصاص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم، السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس).

**وثلاث عشرة:** (الصفات، وص، والزمر، وغافر، وحم، السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات).

ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة "ق" وهو الذي قلناه، والله الحمد والمنة.

**قلت:** بالنسبة للحديث الذي ساقه ابن كثير رحمه الله ضعيف في سنده عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى وهو الطائفي قال البخاري فيه نظر وعثمان بن عبد الله بن أوس قال الحافظ في التقریب مقبول يعني إن توبع وإلا فليين.

**قال السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (١/٢٢١):** وَالْمُفْصَلُ: مَا وَلِيَّ الْمُثَانِي مِنْ قِصَارِ السُّورِ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْفُصُولِ الَّتِي بَيْنَ السُّورِ بِالْبَسْمَلَةِ وَقِيلَ لِقَلِّهِ الْمُنْسُوخِ مِنْهُ وَلِهَذَا يُسَمَّى بِالْمُحْكَمِ أَيْضًا كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفْصَلَ هُوَ الْمُحْكَمُ وَآخِرُهُ سُورَةُ النَّاسِ بِأَلَا نَزَاعٍ وَاخْتُلِفَ فِي أَوَّلِهِ عَلَيَّ اثْنِي عَشَرَ قَوْلًا:

**أحدها:** (ق) لحديث أوس السابق قريبا قلت الحديث ضعيف على ما تقدم والجمهور على هذا التقسيم.

**الثاني:** (الحجرات) وصححه النووي.

**الثالث:** (القتال) عزاه الماوردي للأكثرين.

**الرابع:** (الجاثية) حكاة القاضي عياض.

**الخامس:** (الصفات).

**السادس:** (الصف).

**السابع:** (تبارك) حكي الثلاثة بن أبي الصيف اليميني في نكته على التنبيه.

**الثامن:** (الفتح) حكاة الكمال الذماري في شرح التنبيه.

**التاسع:** (الرحمن) حكاة ابن السيب في أمالية عن الموطأ.

**العاشر:** (الإنسان).

**الحادي عشر:** (سبح) حكاة بن الفرّاح في تعليقة على المرزوقي.

**الثاني عشر:** (الضحى) حكاة الخطابي ووجهه بأن القارئ يفصل بين هذه

السور في التكبير وعبارة الراغب في مفرداته المفصل من القرآن السبع الأخير.

وقال أبو القاسم بن حبيب: أنبأنا محمد بن صالح بن هانئ أنبأنا الحسين

بن الفضل حدثنا عفان بن مسلم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال: (أنزل

الله مائه وأربعة كتب أودع علومها أربعة منها التوراة، والإنجيل، والزبور،

والفرقان، ثم أودع علوم التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، والقرآن، ثم

أودع علوم القرآن المفصل ثم أودع علوم المفصل بفاتحة الكتاب، فمن علم

تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة).

وقد وجه ذلك بأن العلوم التي احتوى عليها القرآن وقامت بها الأديان

أربعة علم الأصول ومداره على معرفة الله وصفاته وإليه الإشارة بـ: ﴿رَبِّ

الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢-٣]، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بـ:

﴿ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧]، ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بـ: ﴿ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، وعلم العبادات وإليه الإشارة بـ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وعلم السلوك وهو عمل النفس على الآداب الشرعية والانقياد لرب البرية وإليه الإشارة بـ: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ \* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥-٦]، وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله وشقاوة من عصاه وإليه الإشارة بقوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، فنبه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.

كذلك أول سورة " اقرأ "، فإنها مشتملة على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال؛ لكونها أول ما أنزل من القرآن فإن فيها الأمر بالقراءة والبداءة فيها باسم الله وفيه الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب، وإثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفه فعل، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالإخبار من قوله: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥]، ولهذا قيل: إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن؛ لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله. اهـ

وسوره ق مكية بالإجماع وتقدم قول الجمهور أنها أول سور المفصل،

وقد قر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر والعيد، وكان يخطب بها في الجمعة ففي صحيح مسلم (٤٥٧): عن قطبة بن مالك قال: صليت وصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقراً: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، حتى قرأ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق:١٠]، قال: فجعلت أرددها ولا أدري ما قال.

وأخرج (٤٥٨): عن جابر بن سمرة قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر ب ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، وكانت صلاته بعد تخفيفاً وعن سماك قال: سألت جابر بن سمرة عن الصلاة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كان يخفف الصلاة ولا يصلي صلاة هؤلاء، قال: وأنبأني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر ب ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١].

وفي مسلم (٨٩١): عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في العيد: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

وفي مسلم أيضاً (٨٧٢): عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت: أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، من في رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر كل جمعة.

وأخرج (٨٧٣): عن بنت الحارثة بن النعمان قالت: ما حفظت "ق" إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً.

وفي لفظ عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال شيخ الإسلام كما في مجموع فتاوى (٢٢/٢٧٦): وقد تنازع العلماء هل هي آية أو بعض آية من كل سورة أو ليست من القرآن إلا في سورة النمل، أو هي آية من كتاب الله حيث كتبت في المصاحف، وليست من السور على ثلاثة أقوال، والقول الثالث هو أوسط الأقوال وبه تجتمع الأدلة، فإن كتابة الصحابة لها في المصاحف دليل على أنها من كتاب الله وكونهم فصلوها عن السورة التي بعدها دليل على أنها ليست منها.

وقد ثبت في الصحيح أي مسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَةً سُوْرَةٌ»، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ \* إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُؤُوتَ ﴿الكوثر:١﴾، إلى آخرها.

وثبت في الصحيح: أنه أول ما جاء الملك بالوحي قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥]، فهذا أول ما نزل ولم ينزل قبل ذلك: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في السنن أنه قال: «إِنَّ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»، وهي ثلاثون آية بدون البسملة.

وثبت عنه في الصحيح أي: مسلم أنه قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْتَنِي عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»، فهذا الحديث صحيح صريح في أنها ليست من الفاتحة ولم يعارضه حديث صحيح صريح، وأجود ما يروى في هذا الباب من الحديث إنما يدل على أنه يقرأ بها في أول الفاتحة لا يدل على أنها منها؛ ولهذا كان القراء منهم من يقرأ بها في أول السورة، ومنهم من لا يقرأ بها، فدل على أن كلا الأمرين سائغ، لكن من قرأ بها كان قد أتى بالأفضل، وكذلك من كرر قراءتها في أول كل سورة كان أحسن ممن ترك قراءتها؛ لأنه قرأ ما كتبه الصحابة في المصاحف، فلو قدر أنهم كتبوها على وجه التبرك لكان ينبغي أن

تُقرأ على وجه التبرك وإلا فكيف يكتبون في المصحف ما لا يُشرع قراءته، وهم قد جردوا المصحف عما ليس من القرآن حتى أنهم لم يكتبوا التأمين، ولا أسماء السور، ولا التخميس والتعشير ولا غير ذلك، مع أن السنة للمصلي أن يقول عقب الفاتحة: آمين، فكيف يكتبون ما لا يُشرع أن يقوله وهم لم يكتبوا ما يشرع أن يقوله المصلي من غير القرآن، فإذا جمع بين الأدلة الشرعية دلت على أنها من كتاب الله وليست من السورة. أهـ

قوله: ﴿بِسْمِ﴾ الباء للاستعانة، والاسم المشتق من السمو وهو الارتفاع، وقيل: من السمة والصحيح الأول؛ لأنه يُجمع على أسماء ويصغر على سُمي، ومصادر الكلمات تعرف بردها إلى أصولها وتصغيرها، ولو كانت مشتق من السمة لجمع على سمات وصغر على وسيم، والقول باشتقاقه من السمو هو قول المحققين من أهل السنة كشيخ الإسلام وغيره بل جعلوا هذا الاختلاف مما له أثر في العقيدة.

قوله: ﴿الله﴾ عَلم على الذات العلية وهو أعرف المعارف وعليه مدار جميع الأسماء، ولم يأت تابعا، وهو الاسم الأعظم على الصحيح من أقوال أهل العلم، وهو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنی فهو مشتق من الإله كما قال رؤبة بن العجاج: لله در الغانيات المده سبحن واسترجعن من تألهي.

قوله: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ علم على الله عز وجل وهو من الأسماء المختصة،

وقد جاء في القرآن على الأسمية وجاء تابعًا قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٣]، وأنكره بعض قريش لما قالوا: "وما الرحمن" فإما أن يكون مكابرة أو أنه كان معلومًا عند بعض العرب ولم يكن معروفًا عندهم، وقد وجد في إشعار العرب: (أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا) وهو دال على صفة الرحمة المتعلقة بالذات، وهذه الرحمة عامة للمؤمنين والكفار والطائعين والفجار وغيره.

قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ من أسماء الله الحسنی وليس مختصًا به فقد سمى الله عز وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم رؤفًا رحيمًا في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، وفي حديث جبير بن مطعم في الصحيحين وسماه الله رؤفًا رحيمًا وهذا الاسم دال على صفة الرحمة المتعدية قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، في أقوال كثيرة وفضائل عظيمة ذكرتها في شرحي على العقيدة الواسطية والله الحمد والمنه ومنه التوفيق والعصمة.

والإتيان بالبسملة في مقدمة الأفعال فيه من البركة الشيء العظيم، فالعبد حين يأتي بها في مقدمة فعلة يكون مستعينًا بالله عز وجل ومن أستعان بالله أعانة ولن يعجز الله عز وجل شيئًا، ويكون متحررًا من الشيطان، ففي صحيح مسلم (٢٠١٨): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ».

قوله تعالى: ﴿ق﴾ اختلف العلماء في هذه الحروف المقطعة في أول السور، فمنهم من لم يجعل لها معنى وقال: إنما هي من حروف المعجم ذكرها الله عز وجل في أول كثير من السور؛ لإظهار معجزة القرآن فيقال: يا معشر قريش هذا الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم مكون من هذه الحروف فأتوا بمثلة أو عشر سور مثله أو حتى سورة، وفي كل ذلك يعجزون قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، وأغلب سور القرآن التي أفتحتها عز وجل، فهذه الأحرف يكون بعدها ذكر القرآن لبيان شرفه ومنزلته على ما يأتي إن شاء الله.

ومنهم من قال: لها معنى، واختلفوا في هذا المعنى فروي أنها أسماء لله عز وجل، وقيل: الإشارة إلى عدد سنين هذه الأمة، وقيل: أسماء القرآن، وقيل:

أسماء السور، وقيل غير ذلك، وكل ذلك مما لا دليل عليه، والقول الأول ذكره مع ذكر أوجهه ابن جرير في تفسير سورة البقرة وهو الأقرب، وقد نقلت عن العلماء نقلاً موسعاً في ذلك في تفسيري لأوائل سورة البقرة وبالله التوفيق.

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٥) في رده على كلام الزمخشري في معاني هذا الأسماء: وأقول هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيث كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها فيكون هذا تبكيثاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز، وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً عن أن يكون تبكيثاً له وإلزاماً للحجة أياً كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه ولم يفهم السامع هذا ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله.

ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصرفة بتلك الأوصاف هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقر ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصح أن يكون

مقصداً من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به.

وهب أن هذه صناعة عجيبة ونكتة غريبة فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح؛ وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهاذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم ولا مدخل لذلك فيما ذكر.

وأيضاً لو فُرِضَ أنها كلمات مترتبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك؛ لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألغاز والتعمية وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر بل من عكسهما وضد رسمهما، وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراد الله عز وجل، فقد غلط أقبح الغلط وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره.

ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبقَ حينئذ إلا أحد أمرين:

**الأول:** التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتنكب عن طريقه، وهم أتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه.

**الثاني:** التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع: وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم بل الجادة التي ما سواها مردوم، والطريقة العامرة التي ما عداها معدوم، فمن وجد شيئاً من هذا فغير ملوم أن يقول بملئ فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه ومن لم يبلغه شيء، من ذلك فليقل: لا أدري أو الله أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ فكيف بما نحن بصدده فإنه ينبغي أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً ولكلام العرب فيه مدخلاً فكيف وهو خارج عن ذلك على كل التقدير.

وقال: فإن قلت هل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الفواتح يصلح للتمسك به؟ قلت: لا أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

تكلم في شيء من معانيها: اهـ

وعلى ما تقدم من اختلاف العلماء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ق﴾ فروى ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة: أنه قسم أقسم الله به، وهذا من أسماء الله عز وجل، وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن، وقال آخرون: معنى ذلك قضي الأمر، وقيل: اسم الجبل المحيط بالأرض، ذكر هذه الأقوال الطبري في تفسيره، وذكر الأقوال الفراء وزاد على من زعم أنه اسم جبل فكأنه قال: هو "قاف والله" وكان ينبغي لرفعه أن يظهر؛ لأنه اسم وليس بهجاء فلعل القاف وحدها ذكرت من اسمه كما قال الشاعر: (قلنا لها قفي فقالت قاف).

**قلت:** كل هذه الأقوال مفتقرة إلى الدليل الذي تقوم به الحجة، وما بقي معنا إلا القول الذي قدمناه من أن: ﴿ق﴾ من الأحرف الهجائية التي أفتح الله عز وجل بها كثيراً من سور القرآن ولا معاني لها وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ هذا قسم من الله عز وجل بهذا الكتاب العظيم، وقد أقسم الله عز وجل به في غير سورة فقال تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص:١]، وقال تعالى: ﴿حَم \* وَالكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢]، والله عز وجل يقسم بما شاء فقد قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس:١]، وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَى \* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى:١-٢]، وقال غير ذلك.

**وأما القرآن:** فهو صفته تعالى تكلم به حقيقة على ما هو مبين في غير ما

موطن بحمد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٦]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥]، والأدلة على أن القرآن كلام الله عز وجل كثيرة. [من كتاب سلامة الخلف].

ويجوز للمكلف أن يحلف بالقرآن وبما هو من صفات الله عز وجل كعزته وقوته وقدرته ووجهه إلى غير ذلك.

وأما الحلف بآيات الله عز وجل مُطلقاً فلا بد من تفصيل فيه، فإن أراد الآيات الشرعية فنعم إذ هي كلامه ووحيه وتنزيله، وإن أراد الآيات الكونية كالشمس، والقمر، والنجوم فلا يجوز؛ لأنها مخلوقة، والحلف بالمخلوق شرك، فعند الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

والقرآن مشتق من الجمع، وقيل: من القراءة وكلاهما صحيح، فهو مجموع من سور وآيات وحروف وكلمات وهو مقروء متلو.

**والقرآن:** هو الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ [الأعراف:٢]، أتم الله عز وجل به الدين قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]، وحفظه عن تحريف المحرفين فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، وصانه عن الباطل، قال عز وجل: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

**حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴿[فصلت:٤٢]﴾، أنزله الله عز وجل للندارة والبلاغ، قال تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، الى غير ذلك من أوصافه التي وصفه الله عز وجل بها.

وسماه: نورًا، ورحمةً، وشفاءً، وذكرى، وهدى، وروح، وهو الكتاب الكريم، والعظيم، والمبين، والحكيم، ولا يستطيع واصف أن يأتي في وصفه بمثل ما قال الله عز وجل عنه، إذ أن أسماء القرآن أعلام وأوصاف، فكل اسم يدل على صفة كمال، فأسأل الله أن يجعلنا من أهله.

**قال الشوكاني رحمه الله في مقدمة تفسيره:** فأى عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأي لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم، كلا والله إن بلاغات البلغاء المصاقع، وفصاحات الفصحاء البواقع، وإن طالت ذيولها، وسالت سيولها، واستنت بميادينها خيولها تتقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأدنى أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلاً، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً، فهو كلام من لا تحيط به العقول علمًا ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهمًا، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام. اهـ

وقوله: ﴿ **الْمَجِيدِ** ﴾ أي: ذو المجد، **والمجد:** السعة، وفسره سعيد بن جبير: بالكريم، روى هذا القول الطبري في تفسيره، وقد سمى الله عز وجل

نفسه وعرشه وكتابه: بالمجيد قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، فعلى الرفع هو وصف لله عز وجل وعلى قراءة الكسر هو وصف للعرش، قال الراغب في المفردات في غريب القرآن ص: (٧٦٠):

**المجد:** السعة في الكرم والجلال يقال: مجد يمجد مجداً ومجادة، وأصل المجد في قولهم مجدت الإبل إذا حصلت في مرعى كثير واسع، وقد أمجدها الراعي وتقول العرب: في كل شجرٍ نار، واستمجد المرخ والعفار وقولهم في صفة الله تعالى: المجيد أي: يجري السعة في بذل الفضل المختص به.

**وقوله في صفة القرآن:** ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١]، فوصفه بذلك بكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية، وعلى هذا وصفه بالكريم بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧]، وعلى نحوه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج:٢١]، وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥]، فوصفه بذلك لسعة فيضه وكثرة جوده، وقُرئ: (المجيد) بالكسري فلجلالة وعظم قدرته، وما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَمَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةِ أَلْفَاها مُلِقٍ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»، وعلى هذا قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦]، والتمجيد من العبد لله في القول وذكر الصفات الحسنة ومن الله للعبد بإعطائه الفضل. اهـ

قوله: والتمجيد من العبد لله بالقول كما تقدم معناه في الحديث: «وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاحة:٤]، قَالَ: مَجْدَنِي عَبْدِي»، (أخرجه مسلم)،

فالقُرآن مجيد كريم ذو سعة في علومه، ومواعظه، ووعدته ووعيدته، وبركته، ويعرف ذلك من أتخذه أمامه وفهمه بفهم السلف الصالح رضوان الله عليهم، فكم من آية قصيرة المبني عظيمه المعنى على ما ترى وتسمع وبالله التوفيق.

**وقال رحمه الله:** وأشرت و في كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (١) إن

القُرآن - وإن كان لا يخلو الناظر فيه من نور ما يريه، ونفع ما يوليه - فإنه:

١ - كالبدر من حيث التفت رأيتَه - يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبًا.

٢ - كالشمس في كبد السماء وضوؤها - يغشى البلاد مشارقًا ومغربًا ،

لكن محاسن أنواره لا يثقفها إلا البصائر الجليلة، وأطياب ثمره لا يقطفها إلا الأيدي الزكية، ومنافع شفاؤه لا ينالها إلا النفوس النقية، كما صرح تعالى به

فقال في وصف متناوليه: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا

الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، وقال في وصف سامعيه: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

وذكرت أنه كما لا تدخل الملائكة الحاملة للبركات بيتًا فيه صورة أو

كلب، كذلك لا تدخل السكينات الجالبة للبينات قلبًا فيه كبر وحرص،

فالخيثات للخيثين والخيثون للخيثات، والطيبات للطيبين والطيبون

للطيّبات، ودللت في تلك الرسالة على كيفية اكتساب الزاد الذي يرقى كاسبه

في درجات المعارف، حتى يبلغ من معرفته أقصى ما في قوة البشر أن يدركه

من الأحكام والحكم، فيطلع من كتاب الله على ملكوت السموات

والأرض، ويتحقق أنّ كلامه كما وصفه بقوله: ﴿ مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. اهـ

**قال ابن كثير رحمه الله:** واختلفوا في جواب القسم فحكى بن جرير عن بعض النحاة أن قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: ٤]، وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ \* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ١-٢]. اهـ

قوله تعالى: ﴿ بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الكفار حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في النبوة والرسالة لم يكن ذلك بكونهم غير عالمين بصدقه فقد كانوا يشهدون بذلك مقرين به، وكانوا يسمونه الصادق الأمين، ولكن تكذيبهم كان بعجبٍ من إنذارهم من عقاب الله عز وجل وإخباره لهم بالبعث والنشور وهذا التعجب منهم تعجب استغراب وإنكار وتكذيب.

وذهب ابن جرير رحمه الله تعالى: أن تعجبهم من كونه تعالى بُعِثَ إِلَيْهِمْ رسولاً من بني آدم فقالوا: هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، ورجحه الرازي ونقله عنه الشوكاني فقال: الظاهر أن قولهم هذا إشارة إلى مجيء المنذر ولا يبعد أنهم من الأمرين: من كونه جاءهم رسول من أنفسهم، ومن

كونه أخبرهم بالبعث والنشور كما يأتي.

وقوله: ﴿ مُنذِرٌ ﴾ أي: نذير قال تعالى: ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وأصل النذارة الإخبار مع التخويف قال تعالى: ﴿ فَأَنْذَرْتُمْكُمْ نَارًا تَلَطَّى ﴾ [الليل: ١٤]، قال تعالى: ﴿ أَنْذَرْتُمْكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣].

وقوله: ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي: من أنفسهم حسبًا ونسبًا يعرفون صدقه وأمانته، كما قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وفي حديث هرقل الطويل: وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. متفق عليه.

قوله: ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وتعجبهم هذا صادر عن استكبارهم عن قبول الحق والاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الله عز وجل قد ذكرهم من الآيات البينات والحجج الواضحات ما فيه مقنع لإثبات البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ

تَوَقِدُونَ \* أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ  
بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ \* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ \*  
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿يس: ٧٨-٨٣﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي: كيف تعمل لنا الإعادة بعد أن متنا  
وكنا ترابًا، كما قال الله عز وجل في سورة المؤمنون: ﴿قَالُوا أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا  
تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ \* لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا  
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿المؤمنون: ٨٢-٨٣﴾.

وفي المستدرک (٣٦٠٦): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ الْعَاصِ  
بُنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ  
أَيَّبَعْتُ اللَّهَ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ  
يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ».

قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: مستبعد عن العقول أو الأفهام أو العادة أو  
الإمكان ذكر ذلك الشوكاني، والذي يظهر: أنهم استبعدوا رجوعهم بعد  
الموت عقلاً وعادة وإمكاناً مع أن الله عز وجل قد ذكر الدلائل على سهولة  
ذلك وحصوله قال تعالى: ﴿أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ  
عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ \* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ  
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿يس: ٨١-٨٢﴾، و قال تعالى: ﴿أَيُّحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ  
سُدًى \* أَلَمْ يَكْ نُطْفَعًا مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى \* فَجَعَلَ مِنْهُ

الرَّوَجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى \* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤٠]، يقول تعالى ذكره مبيِّناً قدرته على ما نفوه من بعد رجوع الإنسان بعد موته: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ وأحصينا: ﴿مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ والأرض تأكل من بن آدم كل شيء إلا عجب الذنب، ففي البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥): عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَيْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي المسند رقم (٨٢٨٣): «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ، إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، فَإِنَّهُ مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ»، وعجب الذنب: عظم لطيف في أصل الصلب وهو رأس العصعص يجعله الله سبباً ظاهراً لإنشاء الخلق مرة أخرى والله أعلم.

وفي لفظ البخاري: «ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ بِهِ كَمَا يَنْبُتُ الْبُقْلُ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ دليل على أنها تأكل جميع الأجساد و يستثنى من ذلك أجساد الأنبياء ومن شاء الله من الشهداء، ففي الحديث عن أوس بن أوس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ

مَعْرُوضَةً عَلَيَّ»، قَالَ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَرَمْتَ؟ - قَالَ: يَقُولُونَ: بَلِيَّتْ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، أخرجَه أبو داود (١٠٤٧).

قال الشيخ الألباني: صحيح.

**والدليل أنها لا تأكل أجساد الشهداء:** ففي صحيح البخاري (١٣٥١) عن جابر رضي الله عنه قال: لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن عليّ ديناً فاقض واستوص بأخوتك خيراً، فأصبحنا فكان أول قتيل ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه.

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لعدتهم وأسمائهم وما ينقص منهم وهو اللوح المحفوظ قال عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ في **لَوْحٍ مَحْفُوظٍ** ﴿[البروج: ٣٢١-٢٢]، وهو الكتاب المكنون والمذكور وفي قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿[الواقعة: ٧٨-٧٩]، وهو أم الكتاب كما قال الله عز وجل: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقد جاءت في وصفه أحاديث لا يثبت منها شيء والله أعلم.

وهو الكتاب المضاف إلى الله عز وجل كما في حديث أبي هريرة رضي

الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»، متفق عليه.

وقد كتب الله تعالى في مقادير الخلائق، ففي صحيح مسلم: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وعند أبي داود: عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ بخبر تعالى عن سبب كفرهم وعنادهم وبغيهم واستبعادهم ما هو يسير على الله تعالى، والأدلة على وقوعه شرعية وعقلية وفطرية، وأن هذا السبب هو التكذيب بالحق الذي هو القرآن والرسالة، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].

وقوله: ﴿ فَهَمْ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ ﴾ أي: ملتبس مختلط، قيل: فيه الشيء المنكر المتغير أما سمعت قول الشاعر:

فَحَالَتْ وَالتَّمَسَتْ بِهِ حَشَاهَا      مخرر كأنه خوط مَرِيحُ

وهذا القول مروى عن ابن عباس كما في الدر المنثور وهذا حال من خرج من الحق إلى الباطل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وكما قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، وكان اضطرابهم في القرآن وفي محمد صلى الله عليه وسلم فتارة يقولون في القرآن سحر، وتارة قول البشر، وتارة أساطير الأولين، وكذلك في محمد صلى الله عليه وسلم حيث قالوا: ساحر، وكذاب، ومسحور، ومجنون، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات: ٥٢]، قال تعالى: ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿ [الفرقان: ٤-٥].

قال ابن القيم في التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٧): لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل

لا يقولون شيئاً إلا كان باطلاً، ولا يفعلون شيئاً إلا كان ضائعاً غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله عز وجل: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]. اهـ

والواجب على المسلم قبول الحق والانقياد له منذ قرع الحق لسمعه، فمن أستجاب وانقاد شرح الله له صدره وتيسر أمره، ومن لا فلا، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلّفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقتراها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ

﴿البقرة: ٢٨٥﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ورواه من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، فذكر مثله ولفظه: «فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ».

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، هذا استدلال من الله عز وجل بآيته الكونية على صحة الآيات الشرعية، بل ويأمر تعالى بالنظر في السماء وبنائها وما فيها من الكواكب، والنجوم التي زينها بها، وإلى الأرض وعظم خلقها وما فيها من الجبال والرواسي، فيستدل بقدره الله عز وجل على قدرته على الخلق

والاعادة بعد الموت ومثل هذه الآية كثير.

فقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ لماذا لا يستدلون بآيات الله الكونية وما فيها من العجائب على صدق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قدرته التي لا تخلف عنها شيء، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، والنظر هنا يشمل نظر البصر والبصيرة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَىٰ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَىٰ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَإِلَىٰ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

**وقال الراغب في تفسيره:** النظر نظران: نظر بصر وبه يدرك المحسوسات، ونظر بصيرة وبه يدرك المعقولات، ونظر البصر كالخادم لنظر البصيرة وإن كان كلاهما سبيل إلى المعرفة. اهـ

قوله: ﴿ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ وهي الأجرام السبعة المحكمة المتقنة، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ [الملك: ٣]، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وكل ما علا فهو سماء على ما يأتي.

قوله: ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَهَا ﴿[لقمان:١٠]﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿[الذاريات:٤٧]﴾، وكما قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا \* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿[النازعات:٢٧-٢٨]﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿[النبا:١٢]﴾.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا ﴿أي: زينها بالكواكب والنجوم كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿[الملك:٥]﴾. وكما قال: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[فصلت:١٢]﴾. فهذه النجوم التي زين الله عز وجل بها السماء الدنيا منها ما يُرجم به الشياطين، ومنها ما يُهتدي به، وقد سلطها الله عز وجل على مسترقي السمع قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا \* وَأَنَا كُنَّا نَقُوعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿[الجن:٨-٩]﴾.

وفي مسلم (٢٢٢٩): عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ كُنَّا نَقُولُ: «وُلِدَ اللَّيْلَةُ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «فَإِنَّهَا لَا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلَ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يُلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ - قَالَ - فَيَسْتَخِيرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوَاتِ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْدِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمُونَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَلَكِنَّهُمْ يَقْرَفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

وفي تفسير ابن أبي حاتم (٩/٢٩١٣): عن قتادة قال: إن الله تبارك وتعالى إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدي بها، وجعلها رجوماً للشياطين.

فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال: رأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وأن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة، وهذا الطائر بشيء من الغيب، وقضى الله أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون، ولعمري لو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه

الجنة يأكل فيها رغداً حيث شاء، ونهى عن شجرة واحدة، فلم يزل به البلاء حتى وقع بما نهي عنه.

ولو كان يعلم الغيب لعلمته الجن حين مات نبي الله سليمان عليه السلام، فلبثت تعمل له حولاً في أشد الهوان لا يشعرون بموته: ﴿ مَا ذَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِ ﴾ [سبأ:١٤]، أي: تأكل عصاه، ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ ﴾ [سبأ:١٤]، وهي في مصحف ابن مسعود: (تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المبين)، وكانت الجن تقول قبل ذلك: أنها تعلم الغيب وتعلم ما في غد فابتلاهم الله بذلك، وجعل موت سليمان للجن عظة.

قوله: ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ أي: وليس فيها من صدوع ولا شقوق وفتوق، كما قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ [الملك:٣]، بل هي مبنية محكمة ولها أبواب كما قال تعالى: ﴿ لَا تَفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ [الأعراف:٤٠]، وفي حديث المعراج شيء من ذلك.

وفي مسلم (٢٥٤): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَتَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَيَّ الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطانها ووسعناها كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾ [الغاشية: ٢٠]، ففيها البحار، والجبال، والأنهار، والوهاد، والأودية إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾ أي: طرح الله فيها الجبال الرواسي العظيمة؛ لتثبيتها كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، كما قال تعالى: ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾ [النمل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كل نوع من نبات حسن، وقد روى الطبري هذا القول عن ابن عباس، وقال ابن زيد الحسن: المنظر، والمراد بالزوج هنا: الصنف والنوع تسقى بماء واحد، ثم يقع التفاضل بينها في اللون، والطعم، والريح، والحجم كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣]، وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

قوله تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أي: أن هذه الآيات العظيمة من خلق السموات وما زينها به من الكواكب والنجوم، وما فيها من الإتيقان والأرض وما فيها من الجبال الرواسي والثمار المتنوعة فيها تبصرة لكم وذكر، واستدلوا بها على وحدانية الله عز وجل، وفيها ذكر وعظة للمتذكرين.

وقوله: ﴿ عَبْدٍ ﴾ المراد به هنا: المسلم المنقاد، وقوله: ﴿ مُنِيبٍ ﴾ أي: مخبت خائف رجاع إلى الله عز وجل، وفي هذا دلالة على أن أسباب الذكرى أنها يَتَنَفَّعُ بها المؤمنون كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، و كما قال تعالى: ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩]، بعد أن بين الله عز وجل قدرته على كل شيء، وأنه خلق وأتقن ما هو أكبر من الإنسان وأشد بيانا؛ لقدرته على بعثه بعد موته ضرب هذا المثل، وأنه كما أحيى الأرض الموات التي قد أضمحل نباتها فكذلك يُحيى الموتى بعد أن صاروا ترابًا ورفاتا.

وقد ضرب الله عز وجل نحو هذا المثل في كثير من سور القرآن منها قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ

الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ \* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿[يس: ٧٨-٨٢].

فقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أي: من السحاب ماءً نافعاً طيباً، وكل ما علا فهو سماء قال تعالى: ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا \* لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا \* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبا: ١٤-١٦]، وكقوله: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَعَبْنَا وَقَضَبًّا \* وَزَيَّنَّاها وَنَخْلًا \* وَحَدَائِقَ غُلْبًا \* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا \* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، ومع بركته ونفعه فهو طهور كما قال عز وجل: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال: ١١].

وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾؛ لأن المطر ينزل شيئاً فشيئاً، وبما يعبر عنه بإنزال؛ لأنه تجيء به الأودية والشعاب، أفاده العثيمين.

وقوله: ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجار الأرض قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [سبأ: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ [سبأ: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ ﴾ [الكهف: ٣٩]، قيل: وقد تسمى الأشجار الساترة جنة، وعلى

ذلك حمل قول الشاعر: من النواضح تسقى جنة سحقا أفاده الراغب.  
ومن هذا الباب اختلف العلماء على الجنة التي كان فيها آدم هل هي جنة  
الخلد أم من جنات الأرض قال عز وجل: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ  
وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، فقالت طائفة من أهل العلم: بأنها جنة غير جنة  
الخلد، والذي يظهر: أنها جنة الخلد لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا  
وَلَا تَعْرَى \* وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]، وفي حديث  
الشفاعة الطويل: «وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟»، وهم  
يستشفعون في دخول جنة الخلد، وقد توسعت في قصه آدم عليه السلام وما  
فيها من العقائد والآداب والأحكام في مؤلف مستقل.

وقوله: ﴿ وَحَبِّ الْحَصِيدِ ﴾ وهو الزرع الذي يُراد لحبة وادخاره، وقال  
ابن أبي زمنين: والمعنى الحب الحصيد، فأضاف الحب إلى الحصيد كما  
يقال: صلاة الأولى يراد الصلاة الأولى، ومسجد الجامع يراد المسجد  
الجامع.

والحبوب: هي أحد الأقوات التي امتن الله عز وجل بها على عباده قال  
تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ \* أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا \* ثُمَّ شَقَقْنَا  
الْأَرْضَ شَقًّا \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا \* وَعَيْنًا وَقَضْبًا \* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا \* وَحَدَائِقَ  
غُلْبًا \* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا \* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

قوله تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بِاسْقَاتٍ ﴾ يقول ومما يثبت من الأمطار النخل

الطويل المرتفع الباسق وهو الذاهب طولاً من جهة الارتفاع.

وقوله: ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ أي: ما طلع منها وهو التمر المعروف، وهذا كقوله

تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلَعَهَا هَٰضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨].

وقوله: ﴿نَضِيدٌ﴾ أي: منضود بعضه فوق بعض، وذلك قيل أن يتفتح فإذا

أنشق جف الطلعة وتفرق فليس بنضيد ونحوه قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَنضُودٍ﴾

﴿[الواقعة: ٢٩]، وقد قرأ بعضهم وطلع منضود أفاده بن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا﴾ يقول تعالى ذكره: فعلنا ذلك من إنزال المطر، وما

لحقه من إنبات الجنات والحب الحصيد، والنخل الباسقات؛ رزقاً وعتاء

للعباد أي: للمخلوق الحي، فالرزق: العطاء.

قوله ﴿لِلْعِبَادِ﴾ يشمل المؤمنين والكافرين، فكلهم عبيد الله من حيث

العبادة الكونية القدرية لا الشرعية قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وكم يمنن الله عز وجل على عباده

في كتابه العظيم بما أنعم عليهم من الأرزاق لعلهم يعرفون نعمة الله عز وجل

عليهم فيشكرونه عليها، وحال أغلب الناس العكس من ذلك قال تعالى: ﴿

يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]، وأخبر تعالى

عن عجز الآلهة المزعومة عن رزق عابديها فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا

لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]،

فالرزق منه تعالى قال عز وجل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

﴿الذاريات:٢٢﴾، فقد يُسَمَّى الماء رزقًا.

وفي قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢]، يقول شكركم

على ما يأتي إن شاء الله كما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ يقول: وأحيينا بالماء الذي نزل من السماء

بلدًا ميتًا، ولما كانت بلدة مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى صح أن توصف بوصف

مذكر، وقد أخبر الله تعالى في مواطن من إحياء الأرض الموات بالمطر فقال

تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال في آيات كثيرات: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:٥]، وموتها قحولتها وخلوها من النبات وحياتها أخضرارها

وازدهارها، ومنه قولهم: أرض موات أي: لا زراعة فيها، وقد بوب البخاري

في صحيحة: (باب من أحيا أرضًا مواتًا)، قال الحافظ: بفتح الميم والواو

الخفيفة، قال القزاز: الموات الأرض التي لم تُعمر شبهت العمارة بالحياة

وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم

ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك

ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم

لم يأذن، وهذا قول الجمهور وعن أبي حنيفة لا بد من إذن الإمام مطلقًا،

وعن مالك فيما قرب وضابط القرب ما بأهل العمران إليه حاجة من رعي ونحوه، واحتج الطحاوي للجمهور مع حديث الباب بالقياس على ماء البحر والنهر، وما يصاد من طير وحيوان فإنهم اتفقوا على أن من أخذه أو صاده يملكه سواء قرب أم بعد، سواء أذن الإمام أو لم يأذن له. اهـ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ يقول: كذلك البعث يوم القيامة، قال ابن كثير رحمه الله: فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى.

وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقسم للكفار على إثبات البعث تأكيداً لوقوعه مع شدة إنكارهم له فقال تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يقول ذكره لكفار قريش: أن تكذيبكم للبعث والرسالة قد سلكه أسلافكم وأشباكم ونظراؤكم من المعرضين الذي يرد عن القوم الظالمين، وفي هذه الآية وعيد لكفار قريش ومن في باهم

من حيث أن الله عز وجل ليملي للظالم ثم إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، وفيها تسليته لرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين من جهتين:

**الأول:** أنه ليس بأول رسول كذبه قومه، كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

**الثاني:** ما تقدم بيانه من سوء عاقبة المعرضين والمكذبين.

قوله: ﴿قَوْمٌ نُوْحٍ﴾ أي: الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام وهو أول رسول أرسله الله عز وجل إلى أهل الأرض، كما في حديث الشفاعة وكان بينه وبين آدم عليه السلام عشرة قرون، وهو الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]؛ وذلك حين حملهم في السفينة في الطوفان.

قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ ذكر ابن جرير في تفسيره اختلاف في أصحاب الرس فقيل: هم قريه من ثمود، وروى هذا القول عن ابن عباس، وقال آخرون: بل هي قرية من اليمامة يقال لها الفلج، وروى هذا القول قتاده، وقال آخرون: هم قوم رسوا نبيهم في بئر، وروى هذا القول عكرمة وعليه جمهور المفسرين.

وعن ابن إسحاق، عن مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ نَبِيًّا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ فَلَمْ يُؤْمِنُ مِنْ أَهْلِهَا أَحَدٌ إِلَّا ذَلِكَ الْأَسْوَدُ، ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ عَدَوْا عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحَفَرُوا لَهُ بَيْتًا فَأَلْقَوْهُ فِيهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ بِحَجَرٍ ضَخْمٍ، قَالَ: وَكَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ يَذْهَبُ فَيَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمَّ يَأْتِي بِحَطْبِهِ فَيَبِيعُهُ، فَيَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا وَشَرَابًا، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ، فَيَرْفَعُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ فَيُعِينُهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، فَيُدْلِي إِلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ، ثُمَّ يُعِيدُهَا كَمَا كَانَتْ، قَالَ: فَكَانَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ يَوْمًا يَحْتَطِبُ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، فَجَمَعَ حَطْبَهُ وَحَزَمَ حَزْمَتَهُ وَفَرَعَ مِنْهَا؛ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْتَمِلَهَا وَجَدَ سِنَّةً فَاضْطَجَعَ فَنَامَ، فَضْرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نَائِمًا، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَتَمَطَّى، فَتَحَوَّلَ لِشِقِّهِ الْآخِرِ فَاضْطَجَعَ، فَضْرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَاحْتَمَلَ حَزْمَتَهُ، وَلَا يَحْسِبُ إِلَّا أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَجَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَبَاعَ حَزْمَتَهُ، ثُمَّ اشْتَرَى طَعَامًا وَشَرَابًا كَمَا كَانَ يَصْنَعُ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْحُفْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا الَّتِي كَانَتْ فِيهِ فَالْتَمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ، وَقَدْ كَانَ بَدَأَ لِقَوْمِهِ فِيهِ بَدَاءً، فَاسْتَخْرَجُوهُ وَأَمَّنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، قَالَ: فَكَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْأَسْوَدِ مَا فَعَلَ، فَيَقُولُونَ: مَا نَدْرِي، حَتَّى قَبَضَ اللَّهُ النَّبِيَّ، فَأَهَبَّ اللَّهُ الْأَسْوَدَ مِنْ نَوْمَتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ ذَلِكَ الْأَسْوَدَ لَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ».

وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمه عن ابن اسحاق عن محمد بن كعب مرسلًا وفيه غرابه ونكارة، ولعل فيه إدراجًا والله أعلم.

وأما ابن جرير فقال: لا يجوز أن يجعل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا في القرآن؛ لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم وهؤلاء قد بدا لهم فأمنوا بنبيهم اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم.

وأختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج فالله أعلم.

قوله: ﴿ وَثُمُودٌ ﴾ هم قوم صالح دعاهم إلى عبادة الله عز وجل فطلبوه آية فجعل الله عز وجل الناقة فعقروها فدمر الله عليه بسببها، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُّوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهاِ بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ \* قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ \* قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ \* وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ \* قَالُوا نَقَّاسُمَا بِاللَّهِ لَنُبَيِّنَنَّهٗ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَنقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ \* وَمَكَرُوا

مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا  
 دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ \* فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
 لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿[النمل: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا \* إِذِ انبَعَثَ  
 أَشْقَاهَا \* فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا \* فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ  
 عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس: ١١-١٤].

قوله تعالى: ﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ [ق: ١٣].

قوله: ﴿ وَعَادٌ ﴾ هم قوم هود عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ  
 هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقد  
 دمر الله عز وجل عليهم بالريح، قال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ  
 بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي  
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ \* قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا  
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي  
 أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ \* فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ  
 مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ  
 رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ  
 ﴿[الأحقاف: ٢١-٢٥]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦]. ﴿  
 إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر: ٧]. ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ٦-٨].

قوله: ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ هو عدو الله الذي قال قولته الشنيعة: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

الأَعْلَى ﴿ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

كان قد قتل رجال بني اسرائيل لا سيما الأطفال خوفاً من الرسول الذي يدمر الله ملكه على يديه، فشاء الله تعالى أن يُرَبِّي موسى عليه السلام في بيت فرعون، وقد قص الله عز وجل في كثير من سور القرآن قصته لتكون عبرة لمن بعده من الجبارين والمتكبرين، وكان آخر أمره أن أغرقه الله عز وجل في اليم واستجاب الله عز وجل دعوة موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ \* قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ \* وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ \* فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿ [يونس: ٨٨-٩٢].

قوله: ﴿ وَإِخْوَانٌ لَوِطٌ ﴾ أي: وقوم لوط، وهو لقول الله عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ \* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ \* وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

عَادُونَ \* قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ \* قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ \* رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ \* فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ \* ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ \* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٦٦-١٧٣﴾، فقد آتو بمنكر فضيع، وفعل قبيح: وهي فعلة اللواط والاكْتفاء بالذكران والاستغناء عن النساء التي خلقهن الله لما خلقن له، ونعوذ بالله من مسخ الفطر، وقد سمي الله عز وجل هذه الفعلة فاحشة، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، واتفق الصحابة رضوان الله عليهم على قتل متعاطيها بكرًا كان أو محصنًا، وإنما اختلفوا في كيفية قتله.

**قال ابن القيم في الداء والدواء (ص: ١٦٨):** وَلَمَّا كَانَتْ مَفْسَدَةُ اللُّوَاطِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ؛ كَانَتْ عُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ .  
وَقَدْ اِخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ هُوَ أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنَ الزُّنَى، أَوْ الزُّنَى أَغْلَظُ عُقُوبَةً مِنْهُ، أَوْ عُقُوبَتُهُمَا سَوَاءٌ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

**القول الأول:** فَذَهَبَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَخَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَعْمَرٍ، وَالزُّهْرِيُّ، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمَالِكٌ، وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي أَصْحَاحِ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ - وَالشَّافِعِيُّ - فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ - إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ أَغْلَظُ مِنْ عُقُوبَةِ الزُّنَى، وَعُقُوبَتُهُ الْقَتْلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، مُحْصِنًا كَانَ

أَوْ غَيْرِ مُحْصَنٍ.

**القول الثاني:** وَذَهَبَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَقَتَادَةُ، وَالْأَوْزَاعِيُّ، وَالشَّافِعِيُّ - فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِهِ -، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ - فِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ عَنْهُ -، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدُ: إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ وَعُقُوبَةَ الزَّانِي سَوَاءٌ.

**القول الثالث:** وَذَهَبَ الْحَاكِمُ وَأَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ عُقُوبَتَهُ دُونَ عُقُوبَةِ الزَّانِي، وَهِيَ التَّعْزِيرُ، قَالُوا: لِأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ مِنَ الْمَعَاصِي لَمْ يَقْدِرِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ حَدًّا مُقَدَّرًا، فَكَانَ فِيهِ التَّعْزِيرُ، كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ.

**قَالُوا:** وَلِأَنَّهُ وَطْءٌ فِي مَحَلٍّ لَا تَشْتَهِيهِ الطَّبَاعُ، بَلْ رَكَّبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّفْرَةِ مِنْهُ حَتَّى الْحَيَوَانَ الْبَهِيمِ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ حَدٌّ كَوَطْءِ الْأَتَانِ وَغَيْرِهَا قَالُوا: وَلِأَنَّهُ لَا يُسَمَّى زَانِيًا لُغَةً وَلَا شُرْعًا وَلَا عُرْفًا، فَلَا يَدْخُلُ فِي النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى حَدِّ الزَّانِينَ.

**قَالُوا:** وَقَدْ رَأَيْنَا قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ، أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا كَانَ الْوَازِعُ عَنْهَا طَبِيعِيًّا اكْتَفَى بِذَلِكَ الْوَازِعِ مِنَ الْحَدِّ، وَإِذَا كَانَ فِي الطَّبَاعِ تَقَاضِيهَا، جُعِلَ فِي الْحَدِّ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الطَّبَاعِ لَهَا، وَلِهَذَا جُعِلَ الْحَدُّ فِي الزَّنَى وَالسَّرِقَةِ وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ دُونَ أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ

**قَالُوا:** وَطَرُدُ هَذَا، أَنَّهُ لَا حَدَّ فِي وَطْءِ الْبَهِيمَةِ وَلَا الْمَيْتَةِ، وَقَدْ جَبَلَ اللَّهُ

سُبْحَانَهُ الطَّبَاعَ عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ وَطْءِ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ أَشَدَّ نَفْرَةً، كَمَا جَبَلَهَا عَلَى النَّفْرَةِ مِنْ اسْتِدْعَاءِ الرَّجُلِ مَنْ يَطْوُهُ بِخِلَافِ الزَّنَى، فَإِنَّ الدَّاعِيَ فِيهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ.

**قَالُوا:** وَلِأَنَّ أَحَدَ النَّوعَيْنِ إِذَا اسْتَمْتَعَ بِشَكْلِهِ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ الْحَدُّ، كَمَا تَسَاحَقَتِ الْمَرْأَتَانِ وَاسْتَمْتَعَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِالْأُخْرَى.

**قَالَ أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ:** وَهُوَ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ، وَحَكَاهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا لِلصَّحَابَةِ، لَيْسَ فِي الْمَعَاصِي أَعْظَمُ مَفْسَدَةً مِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةِ، وَهِيَ تَلِي مَفْسَدَةَ الْكُفْرِ، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ مَفْسَدَةِ الْقَتْلِ، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

**قَالُوا:** وَلَمْ يَبْتَلِ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَعَاقِبَهُمْ عُقُوبَةً لَمْ يُعَاقِبْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ بَيْنَ الْإِهْلَاكِ، وَقَلْبِ دِيَارِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْخَسْفِ بِهِمْ، وَرَجْمِهِمْ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ، فَنَكَّلَ بِهِمْ نَكَالًا لَمْ يُنَكِّلْهُ أُمَّةً سِوَاهُمْ، وَذَلِكَ لِعِظَمِ مَفْسَدَةِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الَّتِي تَكَادُ الْأَرْضُ تَمِيدُ مِنْ جَوَانِبِهَا إِذَا عُمِلَتْ عَلَيْهَا، وَتَهْرُبُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِذَا شَاهَدُوهَا، حَشِيَّةَ نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَى أَهْلِهَا، فَيُصِيبُهُمْ مَعَهُمْ، وَتَعَجُّ الْأَرْضُ إِلَى رَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَتَكَادُ الْجِبَالُ تَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، وَقَتْلُ الْمَفْعُولِ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ وَطْئِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا وَطِئَهُ قَتَلَهُ قَتْلًا لَا تَرْجَى الْحَيَاةَ مَعَهُ بِخِلَافِ قَتْلِهِ فَإِنَّهُ مَظْلُومٌ شَهِيدٌ، وَرُبَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ

فِي آخِرَتِهِ.

قَالُوا: وَالذَّلِيلُ عَلَيَّ هَذَا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَدَّ الْقَاتِلِ إِلَى خَيْرَةِ الْوَلِيِّ،  
 إِنَّ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ عَفَا، وَحَتَمَ قَتَلَ الْوَلِيَّ حَدًّا، كَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ  
 رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَذَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَا مُعَارِضَ لَهَا، بَلْ عَلَيْهَا عَمَلُ أَصْحَابِهِ وَخُلَفَائِهِ  
 الرَّاشِدِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ: أَنَّهُ وَجَدَ فِي بَعْضِ صَوَاحِي الْعَرَبِ رَجُلًا  
 يُنْكِحُ كَمَا تُنْكِحُ الْمَرْأَةُ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -  
 فَاسْتَشَارَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الصَّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي  
 طَالِبٍ أَشَدَّهُمْ قَوْلًا فِيهِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَّمِ وَاحِدَةً، وَقَدْ  
 عَلِمْتُمْ مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهَا، أَرَى أَنْ يُحَرَّقَ بِالنَّارِ، فَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ فَحَرَّقَهُ.  
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: يُنْظَرُ أَعْلَى بِنَاءٍ فِي الْقَرْيَةِ، فَيُرْمَى الْوَلِيُّ مِنْهَا  
 مُنْكَبًا، ثُمَّ يُتْبَعُ بِالْحِجَارَةِ.

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْحَدَّ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ قَوْمَ لُوطٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ  
 الَّذِي رَوَى عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ  
 عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ».

رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ، وَاحْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِهَذَا  
 الْحَدِيثِ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى سُرْطِ الْبُخَارِيِّ. قَالُوا: وَثَبَتَ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ»، وَلَمْ يَجِئْ عَنْهُ لَعْنَةُ الزَّانِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ لَعَنَ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ، فَلَمْ يَتَجَاوَزْ بِهِمْ فِي اللَّعْنِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَكَرَّرَ لَعْنَ اللَّوْطِيَّةِ، وَأَكَّدَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَطْبَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى قَتْلِهِ، لَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ فِيهِ رَجُلَانِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي صِفَةِ قَتْلِهِ، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافًا مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِ، فَحَكَاهَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَهِيَ بَيْنَهُمْ مَسْأَلَةُ إِجْمَاعٍ لَا مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ.

قَالُوا: وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَقَوْلُهُ فِي اللَّوْاطِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، تَبَيَّنَ لَهُ تَفَاوُتُ مَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَكَرَ الْفَاحِشَةَ فِي الزَّانِي، أَيُّ هُوَ فَاحِشَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ، وَعَرَفَهَا فِي اللَّوْاطِ، وَذَلِكَ يُفِيدُ أَنَّهُ جَامِعٌ لِمَعَانِي اسْمِ الْفَاحِشَةِ، كَمَا تَقُولُ: زَيْدُ الرَّجُلِ، وَنَعَمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ، أَيُّ أَتَأْتُونَ الْخِصْلَةَ الَّتِي اسْتَقَرَّ فُحْشُهَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، فَهِيَ لِظُهُورِ فُحْشِهَا وَكَمَالِهِ غَنِيَّةٌ عَنْ ذِكْرِهَا، بِحَيْثُ لَا يَنْصَرِفُ الْإِسْمُ إِلَى غَيْرِهَا، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ لِمُوسَى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]، أَيُّ: الْفَعْلَةُ الشَّنْعَاءُ الظَّاهِرَةُ الْمَعْلُومَةُ لِكُلِّ أَحَدٍ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ شَأْنَ فُحْشِهَا بِأَنَّهَا لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ قَبْلَهُمْ،  
 فَقَالَ: ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، ثُمَّ زَادَ فِي التَّأَكِيدِ  
 بِأَنَّ صَرَخَ بِمَا تَشْمِزُّ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَتَنْبُو عَنْهُ الْأَسْمَاعُ، وَتَنْفِرُ مِنْهُ الطَّبَائِعُ أَشَدَّ  
 نَفْرَةً، وَهُوَ إِيْتَانُ الرَّجُلِ رَجُلًا مِثْلَهُ يَنْكِحُهُ كَمَا يَنْكِحُ الْأُنْثَى، فَقَالَ: ﴿ إِنَّكُمْ  
 لَتَأْتُونَ الرَّجَالَ ﴾ [الأعراف: ٨١].

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى اسْتِغْنَائِهِمْ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْحَامِلَ لَهُمْ عَلَيْهِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ  
 الشَّهْوَةِ لَا الْحَاجَةَ الَّتِي لِأَجْلِهَا مَالَ الذَّكْرُ إِلَى الْأُنْثَى، وَمِنْ قَضَاءِ الْوَطْرِ وَلَذَّةِ  
 الْإِسْتِمْتَاعِ، وَحُصُولِ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ الَّتِي تَنْسِي الْمَرْأَةَ لَهَا أَبُوَيْهَا، وَتَذْكُرُ  
 بَعْلِهَا، وَحُصُولِ النَّسْلِ الَّذِي هُوَ حِفْظُ هَذَا النَّوعِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ  
 الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَحْصِينِ الْمَرْأَةِ وَقَضَاءِ وَطْرِهَا، وَحُصُولِ عِلَاقَةِ الْمُصَاهَرَةِ  
 الَّتِي هِيَ أُخْتُ النَّسَبِ، وَقِيَامِ الرَّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَخُرُوجِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَى  
 اللَّهِ مِنْ جَمَاعِهِنَّ كَالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَمُكَاتَرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْأَنْبِيَاءِ بِأُمَّتِهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ النِّكَاحِ، وَالْمَفْسَدَةِ الَّتِي  
 فِي الْوِطْرِ تَقَاوُمٌ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَتَرْبِي عَلَيْهِ بِمَا لَا يُمَكِّنُ حَضْرَ فِسَادِهِ، وَلَا يَعْلَمُ  
 تَفْصِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ أَكَّدَ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللُّوْطِيَّةَ عَكَسُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا الرَّجَالَ،  
 وَقَلَّبُوا الطَّبِيعَةَ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِي الذُّكُورِ، وَهِيَ شَهْوَةُ النِّسَاءِ دُونَ الذُّكُورِ،  
 فَقَلَّبُوا الْأَمْرَ، وَعَكَسُوا الْفِطْرَةَ وَالطَّبِيعَةَ فَأَتَوْا الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونَ النِّسَاءِ،

وَلِهَذَا قَلَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ دِيَارَهُمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَكَذَلِكَ قَلْبُوا هُمْ، وَنُكِّسُوا فِي الْعَذَابِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ.

ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ قُبْحَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْرَافِ وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، فَقَالَ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فَتَأَمَّلْ هَلْ جَاءَ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ فِي الزَّنَى؟

وَأَكَّدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجِّنَا مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ بِوَصْفَيْنِ فِي غَايَةِ الْقُبْحِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وَسَمَّاهُمْ مُفْسِدِينَ فِي قَوْلِ نَبِيِّهِمْ: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ فِي قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

فَتَأَمَّلْ مَنْ عُوِقِبَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعُقُوبَاتِ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللَّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَذَمَّاتِ، وَلَمَّا جَادَلَ فِيهِمْ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ، وَقَدْ أَخْبَرُوهُ بِإِهْلَاقِهِمْ قِيلَ لَهُ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وَتَأَمَّلْ حُبَّتَ اللُّوْطِيَّةِ وَفَرَطَ تَمَرُّدِهِمْ عَلَى اللَّهِ حَيْثُ جَاءُوا نَبِيَّهُمْ لُوْطًا لَمَّا سَمِعُوا بِأَنَّهُ قَدْ طَرَفَهُ أَضْيَافٌ هُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ صُورًا، فَأَقْبَلَ اللُّوْطِيَّةُ إِلَيْهِمْ يَهْرَؤُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ قَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]،

فَقَدَىٰ أَضْيَافُهُ بِنَاتِهِ يُزَوِّجُهُمْ بِهِمْ خَوْفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَضْيَافِهِ مِنَ الْعَارِ الشَّدِيدِ،  
**فَقَالَ: ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي  
 أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾** [هود: ٧٨]، فَرَدُّوا عَلَيْهِ، وَلَكِنْ رَدَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ: ﴿ لَقَدْ  
 عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩]، فَفَتَحَ نَبِيُّ اللَّهِ  
 مِنْهُ نَفْثَةً مَضْذُورٍ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مَكْرُوبٍ، فَقَالَ: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ  
 آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠]، فَفَنَسَّ لَهُ رُسُلَ اللَّهِ عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ، وَأَعْلَمُوهُ  
 أَنَّهُمْ مِمَّنْ لَيْسُوا يُوصَلُ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَيْهِ بِسَبَبِهِمْ، فَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ، وَلَا تَعْبَأْ بِهِمْ،  
 وَهَوْنٌ عَلَيْكَ، فَقَالُوا: ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١]،  
 وَبَشَّرُوهُ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْوَعْدِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنَ الْوَعِيدِ الْمُصِيبِ فَقَالُوا: ﴿  
 فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا  
 أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

فَاسْتَبَطَّ نَبِيُّ اللَّهِ مَوْعِدَ هَلَاكِهِمْ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ هَذَا، فَقَالَتِ  
 الْمَلَائِكَةُ: أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَ إِهْلَاكِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَنَجَاةِ نَبِيِّهِ  
 وَأَوْلِيَائِهِ إِلَّا مَا بَيْنَ السَّحْرِ وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، وَإِذَا بَدَّيَارِهِمْ قَدِ اقْتَلَعَتْ مِنْ أَصْلِهَا،  
 وَرُفِعَتْ نَحْوَ السَّمَاءِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نُبَاحَ الْكِلَابِ وَنَهَيْقَ الْحَمِيرِ، فَبَرَزَ  
 الْمَرْسُومُ الَّذِي لَا يُرَدُّ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ الْجَلِيلِ، إِلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ جِبْرَائِيلَ، بِأَنَّ  
 قَلْبَهَا عَلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ  
 أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢]،

فَجَعَلَهُمْ آيَةً لِلْعَالَمِينَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ، وَنَكَالًا وَسَلْفًا لِّمَن شَارَكَهُمْ فِي  
 أَعْمَالِهِمْ مِنَ الْمُجْرِمِينَ، وَجَعَلَ دِيَارَهُمْ بَطْرِيْقَ السَّالِكِينَ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ \* وَإِنَّهَا لَبَسِيْلٌ مُّقِيمٌ \* ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ  
 ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧]، أَخَذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ وَهُمْ نَائِمُونَ، وَجَاءَهُمْ بِأَسْهُ وَهُمْ فِي  
 سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَقَلِبْتَ تِلْكَ اللَّذَّةَ آلَمًا،  
 فَأَصْبَحُوا بِهَا يُعَذَّبُونَ مَا رَبُّ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لِأَهْلِهَا عَذَابًا فَصَارَتْ فِي  
 الْمَمَاتِ عَذَابًا، ذَهَبَتِ اللَّذَاتُ وَأَعْقَبَتِ الْحَسَرَاتِ، وَانْقَضَتِ الشَّهَوَاتُ،  
 وَأُورِثَتِ الشَّقَوَاتِ، وَتَمَتَّعُوا قَلِيْلًا، وَعُذِّبُوا طَوِيْلًا، رَتَعُوا مَرْتَعًا وَخِيْمًا  
 فَأَعْقَبَهُمْ عَذَابًا أَلِيْمًا، أَسْكَرَتْهُمْ خَمْرَةٌ تِلْكَ الشَّهَوَاتِ، فَمَا اسْتَفَاقُوا مِنْهَا إِلَّا  
 فِي دِيَارِ الْمُعَذِّبِينَ، وَأَرْقَدْتُهُمْ تِلْكَ الْغَفْلَةُ، فَمَا اسْتَيْقَظُوا مِنْهَا إِلَّا وَهُمْ فِي  
 مَنَازِلِ الْهَالِكِينَ، فَندِمُوا وَاللَّهِ أَشَدَّ النَّدَامَةَ حِينَ لَا يَنْفَعُ النَّدْمُ، وَبَكَوْا عَلَى مَا  
 أَسْلَفُوهُ بَدَلَ الدُّمُوعِ بِالدَّمِ، فَلَوْ رَأَيْتِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَالنَّارُ  
 تَخْرُجُ مِنْ مَنَافِذِ وُجُوهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَهُمْ بَيْنَ أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ  
 بَدَلَ لَذِيذِ الشَّرَابِ كُؤُوسَ الْحَمِيمِ، وَيُقَالُ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ يُسْحَبُونَ:  
 ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ  
 عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦]، وَقَدْ قَرَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَسَافَةَ  
 الْعَذَابِ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ مُخَوِّفًا لَهُمْ أَنْ يَقَعَ  
 الْوَعِيدُ: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

فَيَا نَاكِحِي الذُّكْرَانَ يَهْنِيكُمُ      فَيَوْمَ مَعَادِ النَّاسِ إِنَّ لَكُمْ أَجْرًا  
كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَازْنُوا وَلُوطُوا      فَإِنَّ لَكُمْ زَفْرًا إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمْرَا  
فِيخْوَانِكُمْ قَدْ مَهَّدُوا الدَّارَ قَبْلَكُمْ      وَقَالُوا إِلَيْنَا عَجِّلُوا لَكُمْ الْبُشْرَى

اهـ.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ هم قوم شعيب، وكان من صفتهم: تطفيف المكيال والميزان مع كفرهم بالله تعالى، واحتقروا نبيهم عليه السلام فدمر الله عز وجل عليهم وسلمه، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ \* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ \* وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ \* وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ \* وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ \* قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ \* وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ \* فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ \* فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٩].

الأَيْكَةُ: مجمع الشجر على قول أهل التفسير.

وقال الطبري رحمه الله: الأَيْكَةُ الشجر الملتف وهو واحد الأيك وكل

شجر ملتف فهو عند العرب أيك ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تَجْلُو بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيَكَّةٍ      برداً أسفّ لثاته بالإثمِ

وروى من طريق بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾

﴿قال: أصحاب الغيضة.

ومن رواية ابن جريج قال: الأيكة: الملتف من الشجر، وهكذا قال بن زيد

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ تَبِعَ﴾ هم من اليمن جاءتهم الرسل فكذبوهم كما

فعل أسلافهم فأهلكهم الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧]، وذكر الشوكاني:

أن اسمه سعد بن كرب، وقيل: أسعد، وذكر عن قتادة قال: ذم الله قومه ولم

يذمه.

**وفي تفسير الطبري جامع البيان: ط هجر (٤١٦/٢١):** وكان من خبره وخبر

قومه، ما حدثنا به مجاهد بن موسى، قال: ثنا يزيد، قال: أخبرنا عمران بن

حُدَيْر، عن أبي مجلز، عن ابن عباس، أنه سأل عبد الله بن سلام، عن تَبِعَ ما

كان؟ فقال: إن تبعاً كان رجلاً من العرب، وإنه ظهر على الناس، فاختر فتية

من الأخيار فاستبطنهم واستدخلهم، حتى أخذ منهم وباعهم، وإن قومه

استكبروا ذلك وقالوا: قد ترك دينكم، وباع الفتية؛ فلما فشا ذلك، قال

للفتية، فقال الفتية: بيننا وبينهم النار تُحْرِقُ الكاذب، وينجو منها الصادق،

ففعّلوا، فعلق الفتية مصاحفهم في أعناقهم، ثم غدوا إلى النار، فلما ذهبوا أن

يدخلوها، سفعت النار في وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تَبِعَ: لتدخلنها؛

فلما دخلوها أفرجت عنهم حتى قطعوها، وأنه قال لقومه ادخلوها؛ فلما ذهبوا يدخلونها سفعت النار وجوههم، فنكصوا عنها، فقال لهم تَبَّعْ: لتدخلنها، فلما دخلوها أفرجت عنهم، حتى إذا توسطوا أحاطت بهم، فأحرقتهم، فأسلم تُبَّعْ، وكان تُبَّعْ رجلاً صالحاً.

وهذا سند صحيح والله أعلم، وقيل هو أول من كسى الكعبة وقال بعضهم: ومن هنا دخلت اليهودية اليمن.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ كَذَّبِ الرَّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدٌ﴾ أي: كل واحد منهم كذب من أرسل الله إليهم، وقد تنوعت طرق الكفار في رد رسل الله عز وجل فقال بعضهم: بأنهم سحرة كما قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ \* أتواصوا به بل هم قوم طاعون ﴿[الذاريات: ٥٢-٥٣]، وقال بعضهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقال بعضهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدٌ﴾ أي: وجب عليهم وعيدي، وحقت عليهم كلمة العذاب، وحل بهم ما قدر الله عز وجل عليهم من المسخ، والخسف، وأنواع العذاب الذي عذب الله تعالى به كل طائفة منهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهذه مسألة يذكرها أهل العقائد في كتبهم ردًا على المعتزلة الذين من أصولهم الخمسة انفاذ الوعيد: وهو الإيجاب على الله عز وجل تخليد عصاة المسلمين في النار كما توعد على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، إلى غير ذلك مما في الباب.

ويُرد عليهم: أن من مات على الإسلام إلى الجنة إما ابتداءً وإما مآلاً؛ وذلك لأن الكبائر ما سوى الشرك تحت المشيئة قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، ثم إن هناك فرق بين الوعد والوعيد:

**فالوعد:** أوجب الله تعالى على نفسه الوفاء به قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وخلف الوعد من صفات أهل النفاق ففي الحديث: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ».

**والوعيد:** يجوز خلفه، بل ربما مُدَح من يؤخره حتى قيل: وَإِنِّي إِِنْ وَعَدْتُهُ أَوْعَدْتُهُ لَمْخَلِفِ إِيْعَادِي وَمُنْجِزِ مَوْعِدِي  
**والوعد:** يكون في العطاء وغيره، فتأمل هذا تسلّم من شبه المبتدعة في هذا

الباب.

قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ

﴿ [ق:١٥].

يقول تعالى ذكره رادًا على المشركين قولهم: ﴿ أَتَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ

رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق:٣]: ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أفعجنا عن الخلق الأول حتى

نعجز عن الثاني، وهذا يقرر في القرآن كثيرًا قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ خَلْقُهُمْ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ

بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف:٣٣]، وهذا استدلال عقلي فلو كان ثمت

عجز لكان في الخلق الأول إعادة الخلق أهون: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿ [آل عمران:٤٩]، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم:٤٧].

قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ ﴾ أي: في شك وظن؛ وذلك بعدم تلقيهم للعلم

وبسبب تلقفهم للشبهات؛ ولذلك حصل لهم شك في البعث والنشور ونحو

ذلك

قوله تعالى: ﴿ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي: من البعث، قال الشوكاني: ومعنى

الإضراب أي في قوله: ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ أنهم غير منكرين لقدرة الله على الخلق

الأول: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ قال الطبري: ما يشك هؤلاء

المشركون المكذبون بالبعث إنا لم نعيى بالخلق الأول ولكنهم في شك من

قدرتنا على أن نخلقهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم في قبورهم. اهـ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُمْ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

**قال الشوكاني:** هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية والمراد بالإنسان الجنس وقيل آدم عليه السلام. اهـ

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأوجدناه من العدم، وجعلنا له سمعاً، وبصراً، وعقلاً، وتفكيراً، ﴿وَنَعَلْمُمْ﴾ مع ذلك: ﴿مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وما يجول فيها من الخواطر، وفي هذا دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه لا تخفى عليه خافية، فيعلم الظواهر والبواطن، والسر والعلن، وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن الله عز وجل لا يعلم الجزئيات فالله بكل شيء عليم.

**قال الراغب:** والخلق هو التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [السجدة:٤]. بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو خلقكم من نفس واحدة، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى؛ ولهذا قال في الفصل الذي بينه تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧]، وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠]، والخلق يشمل في كافة الناس على

وجهين:

**أحدهما:** في معنى التقدير؛ لقول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ      وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي

**والثاني:** في الكذب، نحو قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. اهـ

فالله تعالى خلق الإنسان وعلمه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا

تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فهو تعالى خالق الخير والشر إلا أنه لا يحب الشر،

وإنما خلقه وأوجده لحكمة علمها وأمر أراده على ما هو مقرر في كتب القدر.

قوله: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ

خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا

تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]،

**والوسوسة:** حديث النفس، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ

يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»، ومنها خطرت رديته تأتي من الشيطان، وقد قال الله

عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ \* مَلِكِ النَّاسِ \* إِلَهِ النَّاسِ \* مِنْ شَرِّ

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ \* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ \* مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

﴾ [الناس: ١-٦]، وفي صحيح مسلم (٢١١): عن عبد الله قال: قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوَاسَةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَخْضُ الْإِيمَانِ»، وفي صحيح مسلم

عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه:

إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: (ذاك صريح الإيمان)، وفي حديث بن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»، والعلاج لهذا الداء: هو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والبعد عن تلك الخواطر، ففي صحيح البخاري ومسلم (٢١٤): عن أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيُتْبِئْهُ».

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ قوله: ﴿وَنَحْنُ﴾ قيل: على التعظيم وقيل: المراد به قرب الملائكة.

وفي الآية: إثبات قرب الله عز وجل من عباده وهو على عرشه تعالى، وهو كما قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٩/٦): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، مِنْ النَّاسِ طَوَائِفُ عِنْدَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحُوجُّهَا إِلَى التَّأْوِيلِ. ثُمَّ أَقُولُ: هَذِهِ الْآيَةُ لَا تَحْلُو إِمَّا أَنْ يُرَادَ بِهَا قُرْبُهُ سُبْحَانَهُ؛ أَوْ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ؛ كَمَا قَدْ اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَإِنْ أُرِيدَ بِهَا قُرْبُ الْمَلَائِكَةِ فَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، فَيَكُونُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

قَدْ أَخْبَرَ بِعِلْمِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِمَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَأَخْبَرَ بِقُرْبِ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ مِنْهُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ \* إِذْ يَتَلَقَّى﴾ [ق:١٦-١٧]، فَفُسِّرَ ذَلِكَ بِالْقُرْبِ الَّذِي هُوَ حِينَ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ وَبِأَيِّ مَعْنَى فُسِّرَ؛ فَإِنَّ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ عَامُّ التَّعَلُّقِ، وَكَذَلِكَ نَفْسُهُ سُبْحَانَهُ لَا يَخْتَصُّ بِهِذَا الْوَقْتِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]. وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ [ق:٤]، وَعَلَىٰ هَذَا فَالْقُرْبُ لَا مَجَازَ فِيهِ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ حَيْثُ عَبَّرَ بِهَا عَنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ أَوْ عَبَّرَ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ مَلَائِكَتِهِ؛ وَلَكِنَّ قُرْبَ كُلِّ بِحَسَبِهِ، فَقُرْبُ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُ تِلْكَ السَّاعَةِ، وَقُرْبُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ مُطْلَقٌ؛ كَالْوَجْهِ الثَّانِي: إِذَا أُرِيدَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَيُّ: نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ؛ فَيَرْجِعُ هَذَا إِلَى الْقُرْبِ الذَّاتِيِّ اللَّازِمِ، وَفِيهِ الْقَوْلَانِ: **أَحَدُهُمَا: إِبْتَاتُ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوْفِيَةِ.**

**وَالثَّانِي: أَنَّ الْقُرْبَ هُنَا بِعِلْمِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فِدَكْرُ لَفْظِ الْعِلْمِ هُنَا دَلٌّ عَلَى الْقُرْبِ بِالْعِلْمِ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى: «إِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، فَالْآيَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلِ الْقُرْبِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ**

إِلَّا عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ، وَحِينَئِذٍ فَالسِّيَاقُ دَلٌّ عَلَيْهِ، وَمِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ هُوَ ظَاهِرُ الْخِطَابِ؛ فَلَا يَكُونُ مِنْ مَوَارِدِ النِّزَاعِ نَدْمٌ تَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَمُخَالَفَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْقَوْلُ فِي الْقُرْآنِ بِالرَّأْيِ.

وَتَحْقِيقُ الْجَوَابِ هُوَ أَنْ يُقَالَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ قُرْبُهُ بِنَفْسِهِ الْقُرْبَ اللَّازِمَ مُمَكِّنًا أَوْ لَا يَكُونُ، فَإِنْ كَانَ مُمَكِّنًا لَمْ تَحْتَجِ الْآيَةُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُمَكِّنًا حُمِلَتْ الْآيَةُ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُهَا وَهُوَ قُرْبُهُ بِعِلْمِهِ.

وَعَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ فِيمَا أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْخِطَابِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ أَوْ لَا يَكُونُ، فَإِنْ كَانَ هُوَ ظَاهِرَ الْخِطَابِ فَلَا كَلَامَ؛ إِذْ لَا تَأْوِيلَ حِينَئِذٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرَ الْخِطَابِ فَإِنَّمَا حُمِلَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَدْ بَيَّنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ فَكَانَ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعَ مَا قَرَنَهُ بِهِذِهِ الْآيَةَ مِنَ الْعِلْمِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ قُرْبَ الْعِلْمِ؛ إِذْ مُقْتَضَىٰ تِلْكَ الْآيَاتِ يُنَافِي ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرِ وَالصَّرِيحُ يَقْضِي عَلَى الظَّاهِرِ وَيُبَيِّنُ مَعْنَاهُ.

وَيَجُوزُ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ تُفَسَّرَ إِحْدَى الْآيَتَيْنِ بِظَاهِرِ الْأُخْرَى وَيُصْرَفَ الْكَلَامُ عَنْ ظَاهِرِهِ؛ إِذْ لَا مَحْذُورَ فِي ذَلِكَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَإِنْ سُمِّيَ تَأْوِيلًا وَصَرَفًا عَنِ الظَّاهِرِ؛ فَذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ وَلِمُوَافَقَةِ السُّنَّةِ وَالسَّلَفِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ لَيْسَ تَفْسِيرًا لَهُ بِالرَّأْيِ، وَالْمَحْذُورُ إِنَّمَا هُوَ صَرْفُ الْقُرْآنِ عَنِ فُحْوَاهُ بِغَيْرِ دَلَالَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالسَّابِقِينَ. اهـ

وبنحو هذا القول: والترجيح فسر ابن كثير الآية قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه.

ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، كما قال في المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل.

وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بأقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة و: «الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

قوله تعالى: ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو عرق يتصل بالكبد والقلب وفيه مجاري الدم والروح، أفاده الراغب.

**وقال الشوكاني:** هو حبل العاتق: وهما وريدان عن يمين وشمال، وقال: حبل الوريد الوتين.

وهذا كما تقدم من إضافة الشيء إلى نفسه فالوريد هو الحبل، وهو كقولهم: مسجد الجامع وهذا مثل في القرب، ومع قربه تعالى وعلمه به وكل

به الملائكة يكتبون حسناته وسيئاته قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، وهذان الملكان الموكلان به فلا يلفظ قولاً ويعمل فعلاً إلا كتب عليه، وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ﴾ [ق:١٧]، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال؛ لأنهما ليسا على كتفيه بل هما في مكان قريب أقرب من جبل الوريد، قاله ابن عثيمين رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]. قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ أي: أعماله فيكتبها عليها، وقوله: ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الملكان الموكلان بأعماله، وقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ﴾ أي: من جهة اليمين وجهة الشمال، وقوله: ﴿قَعِيدٌ﴾ أي: قاعد، قال ابن قتيبة: أي قعيداً من كل جانب.

**وقال الراغب:** أي ملك يترصده ويكتب له وعليه. أهـ

قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم من قول وفعل، وإنما ذكر القول؛ لشدة المآخذة به، وفي الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

**وآفاته كثيرة فمنها:** التآلي على الله تعالى والقول بغير علم، والكذب

والغيبة، والنميمة، والبهت، والقذف، والسبّ وغير ذلك مما يتعاطاه هذا العضو أسأل الله السلام، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره: وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قَالَ: «الْأَجْوَفَانِ الْفَرْجُ وَالْفَمُ»، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنُ لَهُ الْجَنَّةَ»، وفي حديث جندب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَعْفَرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ»، أو كما قال: العلاج للسان أن يمسك عند الكلام إلا في الخير، وفيما هو من ذكر الله عز وجل والنصيحة والتعليم وغير ذلك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن بسر: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، أخرجه الترمذي.

وفي حديث معاذ بن جبل قال:

قَالَ: أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ. قَالَ: «بِخٍ، لَقَدْ سَأَلَتِ عَنْ عَظِيمٍ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَقِيْمُ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَتُوْدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَلْقَى اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَوْ لَا أَدُّكَ عَلَى رَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةَ سَنَامِهِ؟ أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ: فَالْإِسْلَامُ، فَمَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَأَمَّا عَمُودُهُ: فَالصَّلَاةُ، وَأَمَّا ذُرْوَةُ سَنَامِهِ: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ لَا أَدُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ وَقِيَامُ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُكْفِّرُ

الْحَطَايَا»، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، «أَوْ لَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمَلِكِ ذَٰلِكَ لَكَ كُلُّهُ؟» قَالَ: فَأَقْبَلَ نَفْرًا، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ يَشْغَلُوا عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ شُعْبَةُ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَوْلُكَ: «أَوْ لَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَمَلِكِ ذَٰلِكَ لَكَ كُلُّهُ؟» قَالَ: فَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَىٰ لِسَانِهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَنُؤَاخِذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

قَالَ شُعْبَةُ: قَالَ لِي الْحَكَمُ وَحَدَّثَنِي بِهِ مَيْمُونُ بْنُ أَبِي شَيْبٍ، وَقَالَ الْحَكَمُ سَمِعْتُهُ مِنْهُ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ.

**فالواجب على المسلم:** فعل السداد وقوله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقد قيل:

إِذَا لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدِيدِ سَدَادٌ

قوله: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: عنده حافظ حاضر مراقب ليلاً ونهاراً

يكتب قوله وفعله بالليل والنهار.

**قال الشوكاني:** ﴿رَقِيبٌ﴾: ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ

المتتبع لأمر الإنسان الذي يكتب ما يقول من خير وشر، فكاتب الخير ملك

اليمين، وكاتب الشر هو ملك الشمال.

وذهب بعض أهل العلم إلى: أن المكتوب لفظ لعموم قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَوْلٍ ﴾، وقال بعضهم: إنما يكتب الحسنات والسيئات، والذي يظهر القول بالعموم.

**وقد جاءت آثار في ذلك منها:** ما أخرجه ابن جرير عند مجاهد قال: ﴿ عَنْ يَمِينِ الشَّمَالِ ﴾ [ق:١٧]، عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات.

**وقال إبراهيم التيمي:** إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمسك لعله يتوب.

قلت: لا أعلم دليلاً على هذا، وظاهر الدليل أنهما يكتبان كل شيء،  
**وذكر عن الحسن قوله:** ﴿ عَنْ يَمِينِ وَعَنْ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق:١٧]، يا ابن آدم، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ \* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿ [الإسراء:١٣-١٤]،  
ثم يقول: عدل - والله - فيك من جعلك حسيب نفسك.

ففي الآية بيان من الله عز وجل لاطلاع على الإنسان ظاهراً وباطناً،

وحري بالليب أن تحيط لنفسه ويلزم الصالحات من الأعمال، والأقوال، ويطهر الجنان من الأحقاد والادغال فإنَّ نظر الله عز وجل إلى القلوب كما في صحيح مسلم (٢٥٦٤): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

قوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ولا يفعل من فعل إلا ورصدت عليه؛ لأن بجانبه رقيب على عمله ومترصد له، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ \* كِرَامًا كَاتِبِينَ \* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

وهكذا يُسمى الملكان: برقيب وعتيد أم هو اسم جنس؟ لعله هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي: وحلت وحضرت سكرت الموت وهي شدته: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي: أن الموت حق، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»، متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: لما كان أبو بكر رضي الله عنه يقضي

قالت: هذا كما قال الشاعر:

أماوي ما يُغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وصاق بها الصدرُ

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَقُولِي هَكَذَا؛ قُولِي:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩]، أخرجه

الطبري وقال ولقراء من قرأ ذلك وجهان من التأويل:

**أحدهما:** وجاءت سكرة الله بالموت فيكون الحق هو الله تعالى ذكره.

**والثاني:** أن تكون السكرة هي الموت أضيفت إلى نفسها كما قيل: إن هذا

المعلم حق اليقين، ويكون تأويل الكلام وجاءت السكرة الحق بالموت.

وسكرت الموت شديدة أسأل الله اللطف، ففي البخاري: أن فاطمة بنت

محمد صلى الله عليه وسلم رضي الله عنها دخلت على أبيها فقالت: وَكَرَبَ

أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَيَّ أَيْبُكَ كَرَبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ»، وفي الصحيحين عن عائشة

وابن عباس رضي الله عنه: (لَمَّا نُزِلَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَفِقَ يَطْرُحُ

خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ).

وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها وفيه: كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ».

وعند الترمذي (٩٧٨): عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم كان يقول: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَوْ سَكْرَاتِ

الْمَوْتِ»، وفي سننه موسى بن سجرس: مجهول.

ومع ذلك يرحم الله المؤمن حين خروج النفس فتخرج كما تخرج القطرة من في السقاء، ففي مسند أحمد: عن البراء بن عازب قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلِيَّ رُؤُوسَنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضِ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»، قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجِدْتَ عَلِيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ»، قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلِيٌّ مَلَائِكَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسْمُونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُمْ فَيَسْبِعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقْرَبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

اَكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلَيِّنَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»، قَالَ: «فَتَعَادَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ»، قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا، وَطَيْبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْشُرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَحَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيُنْتَزَعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،

فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ  
 الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا،  
 حَتَّى يُتَّهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ  
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى  
 يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «اَكْتُبُوا كِتَابَهُ  
 فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ  
 بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ  
 ﴿[الحج: ٣١]، فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ  
 رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا  
 أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي،  
 فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى  
 النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ  
 أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتَمِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ  
 بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ  
 الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الموت وسكرته.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: الذي كنت تميل عنه وتفر منه.

وذكر الشيخ العثيمين رحمه الله اختلاف المفسرين في قوله: ﴿ذَلِكَ مَا

كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدٌ ﴿٧٩﴾ فقال: اختلف المفسرون فيما هل هي نافية فيكون المعنى: ذلك الذي لا تحيد منه ولا تنفك منه، وإن كانت موصولة فيكون المعنى: ذلك الذي كنت تحيد منه ولكن لا مفر منه. اهـ

وقد قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴿٧٨﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴿٨﴾ [الجمعة: ٨]، ويقول تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والآية يستدل بها أهل العلم على الإشارة على القبر وما فيه من النعيم والعذاب وبالله التوفيق.

وقد كتبت فيه مؤلفاً مستقلاً ذكرت فيه أدلة القرآن وصحيح السنة في إثبات عذاب القبر المستحقة، وأنه الحياة البرزخية التي قال الله عز وجل عنها: ﴿ وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وهي حياة برزخية حقيقية لها أحكامها وهي من علم الغيب الذي يجب أن نؤمن به وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿١٠١﴾ [الصور: ١٠١] هو القرن العظيم الذي ينفخ فيه لصعق الناس ولإحيائهم قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ [الزمر: ٦٨]، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَّقَمَهُ وَأَصْغَى بِسَمْعِهِ، وَحَنَى جِبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»، وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه وزيد بن أرقم عند أحمد ومداره على عطيه العوفي وهو ضعيف ولكن له طريق صحيحه أخرجها أبو يعلى.

والنفخ في الصور نفختان على القول الصحيح لأهل العلم وقال بعضهم ثلاثاً ولا يثبت ما يدل على ذلك.

**فالنفخة الأولى:** نفخة الفزع والموت قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وهي نفسها نفخة الصعق قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

**والنفخة الثانية:** هي نفخة البعث: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

**وبين النفختين أربعون:** ففي الصحيحين: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»، قالوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَيْتُ، «وَيَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يَرْكَبُ الْخَلْقُ».

وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (٢٩٤٠) قال: قال رسول الله صلى

الله عليه و سلم: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُتُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بِنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُتُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَيْدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ، حَتَّى تَقْبِضَهُ»، قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطْرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكِّ - فَتَبَّتْ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ، قَالَ فَذَلِكَ يَوْمَ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ».

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي: يوم ينفخ في الصور هو يوم الوعيد،

وعيد الله عز وجل في تعذيب الكافرين أسأل الله السلامة.

**قال الشوكاني:** وخصص الوعيد مع كون اليوم يوم الوعد، والوعيد جميعاً

لتهويله، وزاد الشيخ ابن عثيمين ولأن السورة كلها مبدؤه بتكذيب المكذابين لرسول الله عليه الصلاة والسلام فناسب أن يغلب فيها جانب الوعيد. اهـ

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:٢١].

يقول تعالى ذكره: ﴿وَجَاءَتْ﴾ في ذلك اليوم وهو يوم القيامة يوم البعث

والنشور، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: من المكلفين، ﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها إلى الله

تعالى، ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر.

وروى الطبري هذا القول عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وروى عن

بن عباس من طريق السلسلة العوفية على أن السائق من الملائكة، والشهيد

شاهد عليه من نفسه.

وروي نحو هذا القول عن الضحاك، وذهب ابن زيد: أنهما جميعاً من

الملائكة وهو قول مجاهد، وهذا الظاهر من الآية، ولا يمنع أن تشهد عليه

نفسه مع ذلك، ففي صحيح مسلم (٢٩٦٩): عن أنس بن مالك قال: كُنَّا عِنْدَ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكُ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ؟»،

قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ

تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا

مِنِّي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ عَلَيْكَ شَهِيدًا،

فِيخْتَمُ عَلَىٰ [ص: ٣٥٩] فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ، وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلٌّ».

فدل الحديث على أن الكرام الكاتبين أيضًا يشهدون على العباد، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وأختلف أهل التفسير عن هذه الآيات هل هي عامة في كل أحد أم أنها خاصة بأهل الشرك؟ والصحيح: أنها عامة في كل أحد لما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، قال ابن جرير: والإنسان في هذا الموضع بمعنى الناس كلهم غير مخصوص منهم بعضهم دون بعض. اهـ

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢]. يقول: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أيها الإنسان: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ والغفلة السهوة عن الشيء أي: ﴿مِنْ هَذَا﴾ اليوم، وهذا الحال بسبب الدنيا والركون إليها، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أي: جلينا ذلك لك فصار عيانًا بعد أن كان خافيًا.

قوله تعالى: ﴿فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي بعد أن كان في الدنيا أعشى أعمى عن معرفة الحق، وهذا كقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢٩﴾ [السجدة: ١٢٩].

وأختلف أهل التفسير هل هذه الآية عامة في كل أحد أم أنها خاصة بالكافرين على ما تقدم.

**وفي هذه الآية:** ضرر الغفلة على الإنسان، وهي من الأمراض الخطيرة التي تقسوا معها القلوب ويضعف الإيمان وينفر الإنسان عن طاعة الملك الديان.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ﴾ أي: قرينه من الملائكة الذي جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه في العذاب الشديد.

قوله: ﴿ قَرِينُهُ ﴾ أي: الملك الموكل بحفظ أعماله، واختار ابن جرير أنه السائق والشهيد، قال ابن كثير وله اتجاه وقوة.

قوله: ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ هذا الذي هو عندي معد محفوظ بلا زيادة ولا نقصان، وقد عُلِمَ أن للإنسان قرينان من الملائكة فيحمل أنه تكلم واحد بلسانهما أو تكلما جميعًا، وسيأتي بيان ذلك في اختيار ابن كثير رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق: ٢٤].

وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنوية، كما روي عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر  
وإن تركاني أحمر عرصًا ممنعًا

وقيل: بل هي نون التأكيد، سهلت إلى الألف، وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالشاهد أحضره إلى عرصة الحساب فلما أدى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير.

وقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ صيغة مبالغة من كافر أي: كثير الكفر، والكفر في الأصل: التغطية والستر، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزراع لستره البذر في الأرض.

وقوله: ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند للحق معارض له بالباطل مع علمه بذلك.  
وقوله: ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: شديد المنع لما عنده من الواجبات من صلة أرحام، وإحسان إلى الجيران ونحو ذلك، وفسره قتادة بالزكاة المفروضة، وله وجه فإن الإنسان إنما يؤخذ على ترك الواجبات، ورجح ابن جرير أنه كل حق وجب لله أو لآدمي في ماله.

وفي مسند أحمد (٦٥٨٠): عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطِئِ مُسْتَكْبِرٍ، جَمَاعٍ مَنَاعٍ»، وهذا كقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧].

**قال ابن جرير:** والخير هو المال في هذا الموضع، وذهب بعضهم إلى أن الخير الإسلام ويكون المنع لمن صد عن دخول الإسلام والاستدلال بالعموم أحسن.

قوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: يتعدى على غيره باللسان سبًا وفحشًا وبذاءة، وباليد بطشًا وسطورًا، وقد يدخل في الاعتداء في حق الله عز وجل وهو تعدي حدوده قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وفي حديث أبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «الْمُسْتَبَانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»، رواه مسلم وأخرجه أحمد عن عياض بن حمار (١٧٤٨٦).

وقد نهى الله عز وجل عنه قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].  
قوله: ﴿مُرِيْبٍ﴾ من الريبة: وهي الشك، وهي هنا الشك في وحدانية الله عز وجل وقدرته على ما يشاء، قاله الطبري.

قال جميل:

بئينة قالت يا جميل اربتني فقال كلنا يا بئينة مريب

ومعناها هنا: أنه شاك في نفسه ومشكك لغيره بإدخال الريبة في قلبه، فتضمنت الآية خمسة أوصاف لهذا المعاند على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله تعالى فعبد غيره، وهذا هو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَاً بَعِيدًا ﴿[النساء:١١٦]، وهو الذنب العظيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ويحبط جميع العمل قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ويخلد في النار قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وأهلها شر البرية أسأل الله السلامة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ ، قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ»، متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه، فمن جعل لله عز وجل شريكاً في خلقه، أو ملكه، أو عبادته، أو أسمائه وصفاته، فقد وقع من الذنب الذي لا يغفر والخطيئة التي لا تستر قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]، والمتأمل لحال المخالفين في هذا الباب يجد أنهم كما قال تعالى: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن:١١]، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الشجر والحجر، ومنهم من يعبد أصناف الحيوان، وأما عباد القبور فآلهتهم أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر كما قال ابن الأمير في أبياته النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم عقروا في سوحها من عقيرة أهلت لغير الله جهراً على عمد  
 وكم طائف حول القبور مقبل ومستلم الأركان منهن باليد  
 والمصيبة العظيمة: أنهم يظنون أن صنيعهم تعظيم الأولياء لجهلهم بمعنى  
 الشرك والعبادة نسأل الله السلامة، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله  
 ويرضاه من الأقوال، والأفعال، والاعتقادات، والشرك ضدها.

قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ يقول لقرينيه: فألقياه في العذاب  
 الشديد الموجه قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا \* لِلطَّاغِينَ مَابًا \*  
 لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا \* لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا \* إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا  
 ﴾ [النبأ: ٢١-٢٥].

ففي مسند أحمد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:  
 «يُخْرَجُ عَنْكَ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا،  
 وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ فَيَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةِ بَكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ ادَّعَى مَعَ  
 اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ».

وفي الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة: أن الكفار لا يصعدون  
 الصراط وإنما يُساقون إلى النار سواقاً فيتقادعون فيها قال الله عز وجل: ﴿  
 وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا﴾ [مریم: ٨٦]، وفي حديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ  
 الْخُدْرِيِّ: أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالُوا: يَا رَسُولَ  
 اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «نَعَمْ»،

قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهْرِ صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَذَنٌ مُؤَدَّنٌ لِيَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَعُجْبٍ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَّبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْعُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَّبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْعُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا - قَالَ - فَيُسَارُ إِلَيْهِمْ أَلَّا تَرُدُّونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارْقِنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ. فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ،

يَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا يَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا  
 يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ وَلَا يَبْقَى مَنْ  
 كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ حَرَ  
 عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ  
 فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، يَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ  
 الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ:  
 «دَحْضُ مَزَلَّةٍ، فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوكَةٌ يُقَالُ  
 لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَالطَّيْرِ  
 وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ  
 جَهَنَّمَ، حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مَنْ  
 أَحَدٌ بِأَشَدَّ مَنَاشِدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ  
 وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ  
 فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَحَدَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ  
 يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ، يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي  
 قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ  
 نَدْرُ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ  
 دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَدْرُ فِيهَا

مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيَخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَدْرِ فِيهَا خَيْرًا»، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنَّ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَأَفْرُوا إِنَّ شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرِجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصْفِرُّ وَأُخْيَضُ وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضُ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ قَالَ: «فَيَخْرِجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتْقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ ثُمَّ يَقُولُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ \* قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ \* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ

قوله: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا ﴾ القرين هنا: هو القرين الجني، وكان الكافر اتهم قرينه الشيطان الموكل به بأنه سبب إغوائه، فكان جواب القرين: ربنا ما أمرته أن يكذب ولا أن يكون عنيداً أو مناعاً أو مشركاً، وهذه البراءة تقع كما قال الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وما من أحد من الإنس إلا وله قرين حتى الرسول صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ»، قالوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَأَيَّايَ، إِلَّا أَنْ اللَّهُ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرَنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»، أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

**قال النووي:** «فَأَسْلَمَ»، برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال: معناه أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع ورجح.

قوله: ﴿ مَا أَطْعَمْتُهُ ﴾ الطغيان: هو مجاوزة الحد قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ \* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ١٠-١١]، ومعناها هنا: ربنا ما أضللته ولكنه كان ضالاً.

قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في كفر سحيق ما عنته عليه كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ \* قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ \* وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ \* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ \* فَأَعْوَيْنَاكُمُ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٢٧-٣٢].

**والضَّالُّ:** العدوُّ عن الطَّريقِ المستقيم، ويضادّه الهداية، قال تعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقال: الضَّالُّ لكلِّ عدولٍ عن المنهجِ عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، فإنَّ الطَّريقِ المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًّا، قال النبي صلَّى الله عليه وسلم: «إِسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا».

وقال بعض الحكماء: كوننا مصيبين من وجه وكوننا ضالِّين من وجوه كثيرة، وإذا كان الضَّالُّ تركَ الطَّريقِ المستقيم عمدًا كان أو سهوًا، قليلًا كان أو كثيرًا، صحَّ أن يستعمل لفظ الضَّالِّ ممَّن يكون منه خطأ ما؛ ولذلك نسب الضَّالُّ إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضَّالِّين بونٌ بعيد.

وفي الآية: بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات ما يتعلق بالإيمان بالقدر، وأن العبد منه عمل وفعل وله قدرة واستطاعة، وأن الله تعالى خالق ذلك فالعبد هو المهتدي والله هو الذي يهديه، والعبد الضال والله هو الذي يُضله.

وأَسباب الضلال كثيرة وأَعمها: البعد عن الكتاب والسنة علمًا وعملاً وانقيادًا، ومنها: الركون إلى المبطلين بمجالستهم والرضى بأفعالهم، ومنها إتباع الهوى كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص:٢٦].

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ هذا قول الله عز وجل لهم ناهيًا عن الخصومة والجدال عنده؛ لأن الحجة منقطعة عليهم: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩]، وكما قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي: قد ذكرت لكم الوعيد على مخالفة الأمر وارتكاب النهي في كتبي وعلى السنة رسلي، وأقمت عليكم الحجج والبيانات، فلا مجال للخصومة والاعتذار والخصام.

قوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ﴾ قال مجاهد: يعني قد قضيت ما أنا قاض وهو كقوله تعالى: ﴿ يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا فَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ،

وقضاء الله عز وجل الذي قضاه في كتبه وعلى ألسنه رسله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ  
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وفيها: إثبات كلام الله عز وجل، وأنه  
 متكلم تعالى بحرف وصوت متى شاء وكيف شاء وبما شاء، كما هو مذهب  
 أهل الحق والسنة، وخالف في ذلك أهل البدعة والشناعة حيث زعموا زورًا:  
 أن كلام الله عز وجل مخلوق، وهذا القول قد نقل غير واحد الإجماع على  
 كفر قائله ومعتقده، بل إن الله متكلم بكلام يسمع على ما هو مقرر في مواطنه  
 والحمد لله، وأذكر من ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا  
 ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].  
 وقوله: ﴿فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ومن زعم أن كلام الله عز وجل مخلوق فقد زعم أن أسماء الله تعالى  
 وصفاته مخلوقة تعالى الله عز وجل عن قولهم، ومن زعم أن كلام الله تعالى  
 مخلوق فقد زعم مثل الله عز وجل بالجماد، وراجع لأدلة إثبات هذه الصفة  
 في كتابي سلامه الخلف في طريقة السلف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بيان لكمال عدله تعالى، وقد قال  
 تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وفي الحديث القدسي: «يَا  
 عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»،  
 أخرجه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ

السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَعَدَّبَهُمْ حَيْثُ يُعَدَّبُهُمْ وَهُوَ عَيْرٌ ظَالِمٍ لَّهُمْ، وَكَوْرَحِمَّتُهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ أَوْسَعُ لَّهُمْ؛ لأن الإنسان عاجز عن أداء حق الله عز وجل على أكمل الوجوه: «وَلَكِنْ سَدَّدُوا وَقَارِبُوا»، والله يتقبل ويتجاوز، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وتسمى هذه الصفة عند أهل السنة: بالصفات المنفية، وضابطها: أن كل صفة في القرآن نفاها الله عز وجل عن نفسه فكمالها في أثبات ضدها فقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لكمال حياته وقيوميته وهكذا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. يقول تعالى ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وذلك يوم القيامة ويقول الله عز وجل لها ذلك مع علمه بها، لكن من باب تقريره لها بما وعدها به.

**قال ابن كثير (٤٠٣):** يُخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدا أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي: ﴿تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث: قال البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حرمي بن عمارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ قَطُّ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه، ورواه أبان العطار وسليمان التيمي، عن قتادة، بنحوه.

حديث آخر: قال البخاري: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميري سعيد بن يحيى بن مهدي، حدثنا عوف، عن محمد عن أبي هريرة -رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان-: «يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امْتَلَأَتْ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ»، رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين به.

طريق أخرى: قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُورِثُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ:

فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لَكَ تَمْتَلِي وَيُرْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

حديث آخر: قال مسلم في صحيحه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا»، انفرد به مسلم دون البخاري من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبي سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: حدثنا حسن وروح قالا حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اِفْتَحَرَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ يَدْخُلْنِي الْجَبَابِرَةُ وَالْمُتَكَبِّرُونَ وَالْمُلُوكُ وَالْأَشْرَافُ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: أَيُّ رَبِّ يَدْخُلْنِي الضُّعْفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»

وَلِكُلِّ وَاٰحِدَةٍ مِّنْكُمْ مِّلْءُهَا، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ أَهْلَهَا، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ قَالَ: وَيُلْقَىٰ فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ وَيُلْقَىٰ فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَأْتِيَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتُرْوَىٰ، فَتَقُولُ: قَدِي قَدِي، وَأَمَّا الْجِنَّةُ فَيَقِي فِيهَا أَهْلَهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقِي فَيُنشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا مَا يَشَاءُ»،

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا عقبه بن مكرم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عدي بن ثابت، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَعْرِفُنِي اللَّهُ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَاسْجُدْ سَجْدَةً يَرْضَىٰ بِهَا عَنِّي، ثُمَّ أَمْدَحْهُ بِمَدْحَةِ يَرْضَىٰ بِهَا عَنِّي، ثُمَّ يُؤَذِّنْ لِي فِي الْكَلَامِ - ثُمَّ يُوَضِّعُ الصِّرَاطَ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ - فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يَمُرُّ أَوْ قَالَ: أَوَّلَ مَنْ يُجِزُّ قَالَ: فَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ الْبَرْقِ وَمِثْلَ الرِّيحِ وَمِثْلَ أَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ - وَجَهَنَّمَ تَسْأَلُ الْمَزِيدَ حَتَّىٰ يَضَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ - وَأَنَا عَلَى الْحَوْضِ» قِيلَ: وَمَا الْحَوْضُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ شَرَابَهُ أَيْضٌ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَأَيْتُهُ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ النُّجُومِ، لَا يَشْرَبُ مِنْهُ إِنْسَانٌ فَيَظْمَأُ أَبَدًا، وَلَا يُصْرَفُ عَنْهُ إِنْسَانٌ فَيُرْوَىٰ أَبَدًا»، وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد اختلف أهل التفسير في معنى قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، إلى

قولين ذكرهما بن جرير:

**الأول:** أنه استفهام طلب بمعنى أنها تطلب الزيادة واختاره لدلاله الأحاديث عليه.

**الثاني:** أنها تقول لا مزيد على ما في.

قوله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق:٣١].

يخبر تعالى بقوله: ﴿ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أي: أدنيت وقربت: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قرباً: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أو مكان غير بعيد منهم بحيث يشاهدونها في الموقف وينظرون ما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قاله الشوكاني.

**والمتقون:** هم الذين يراقبون الله عز وجل فيلتزمون فرائضه ويجتنبون معاصيه ويخافون عقوبته.

**قال الراغب:** وصار التقوى في تعاريف الشرع حفظ النفس عما يؤثم؛ وذلك بترك المحذور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي الحلال بين والحرام بين. اهـ

وأصل التقوى من الاتقاء قال الشاعر:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه      فتناولته وانقتنا باليد

والتقوى أعظم أسباب دخول الجنة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لما سُئِلَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ

الْخُلُقِ»، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

والمتقي الكريم على الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاهُ ﴾

﴿الحجرات: ١٣﴾.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس فقال: «اتَّقَاهُمْ»، متفق عليه.

وهي من أعظم أسباب تفريج الكرب وقضاء الحاجات، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا \* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، و قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وأعظم سبيل تحصيلها العلم والعمل به فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا آتَيْتِي»، أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

قوله تعالى: ﴿ هَذَا مَا توعَدُونَ ﴾ يُقال لهم: هذه الجنة التي وعدتم بها جزاء أعمالكم كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وكما قال: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وكما قال تعالى: ﴿ جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ [النبا: ٣٦]، فجعل الله تعالى الجنة جزاءً لأوليائه على ما قدموا من الأعمال الصالحة كما قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ

الْجَنَّةِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

**قال النووي رحمه الله:** وفي الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ونحوها من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال ثم التوفيق للأعمال والهداية بالإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة لله والله أعلم. أهـ

بمعنى أن الباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، باء سبب لا باء عوض وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَابٍ﴾ أي: أن هذا النعيم وعد الله به كل من اتصف بهذه الصفات وهي كونه أواباً، والأواب: الرجاء إلى الله تعالى بالتوبة عن المعصية، وقيل: المسبح، وقيل: هو الذاكر لله في الخلوة، ولا يمنع أن يشمل جميع تلك المعاني، قال الله عز وجل في شأن داود وسليمان وأيوب عليهم السلام جميعاً: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ [ص: ٣٠]، فقد كانوا مسبحين رجّاعين ذاكرين الله عز وجل في الخلوات والجلوات، ويقول تعالى في شأن أهل

التوبة: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ  
عَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿حَفِيفٌ﴾ أي: حافظ لحدود الله عز وجل، وفي الحديث:  
عن ابن عباس قال: كنت خلفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال:  
«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللهُ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللهُ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ،  
إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهُ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَأَعْلَمُ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ  
عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى  
أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ  
وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، أخرجه الترمذي.

وللمفسرين قولان في معنى الحفيظ ذكرهما بن جرير:

**الأول:** ما روي عن ابن عباس: أن الحفيظ من حفظ ذنوبه حتى رجع عنها.

**الثاني:** قول قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته بمعنى: أنه

حفيظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه، وجمع ابن جرير بين القولين فقال:  
فيقال هو حفيظ لكل ما قربه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي  
سلفت منه للتوبة منها والاستغفار.

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ﴾ أي: ومن صفات من أدنيت له الجنة: من

خشي الله عز وجل، والخشية: خوف يشوبه التعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن

علم بما يُخشى منه؛ ولذلك حُصَّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ مِنَ

**عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴿[فاطر:٢٨]﴾، قال الراغب: فمن راقب الله عز وجل وخشيه وخافه واتفاه فإن ذلك من دواعي سلامته في الدنيا والآخرة.

قوله ﴿الرَّحْمَنَ﴾ من أسماء الله المختصة به، فلا يجوز أن تطلق على غيره، وهو يتضمن صفة الرحمة.

قوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: في حال خلوته وجلوته، وهو مراقب الله عز وجل قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام:٧٣]، وهذه مرتبة جليلة إنما يوفق لها خالص المؤمنين، أسأل الله أن يجعلنا منهم، وفي حديث عمار رضي الله عنه عند النسائي: «اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»، وفي الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، أخرجه مسلم عن عمر رضي الله عنه.

وقد نهى الله عز وجل عن خشية غيره فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ [المائدة:٤٤].

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ﴾ أي: الله عز وجل وهو ثابت على دينه، وفي الحديث: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»، أخرجه مسلم عن جابر، وفي حديث سهل بن سعد: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»، أخرجه البخاري.

قوله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: ومن صفات أهل الجنة: أنه يقبل إلى ربه بقلب تائب سليم من ذنوبه راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه، ويكون هذا الرجوع حتى يوافي الله عز وجل، قال قتادة: أي: منيب إلى ربه مقبل، قال

تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنْتَفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فهذه صفات جليلات عظيمات نافعات يحتاج العباد إلى التخلق بها والتعبد لله عز وجل بها وهي صفات خلص المؤمنين وصفوة خلق الله عز وجل أجمعين، إذ عليها مرار صلاح الأعمال الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩]، فهي دالة على وجوب ملازمة الطاعة لله عز وجل والمراقبة له والتوبة مما يقع فيه العبد من الذنوب والتقصير في طاعة العلي الكبير، وهي دالة على حسن الخاتمة وأن الأعمال بها كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: الجنة، قال قتادة: سلموا من عذاب الله وسُلم عليهم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [الحجر: ٤٦]. وكقوله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ \* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، فأصحاب الجنة سالمون من كل آفة وأذية، وفي حديث أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ

تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، «  
أخرجه مسلم (٧٣٣٦).

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أي: أن هذا الذي وصف لكم من حال المؤمنين يكون في يوم الخلود والحياة الدائمة التي لا انقضاء لها كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [النساء: ٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٧]. وفي الآية بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في أن الله عز وجل خلق الجنة وما فيها للبقاء لا للفناء، والقول بفناء الجنة والنار هو قول المبتدعة من المعتزلة والجهمية ومن إليهم أما أهل السنة فيقولون بأبديتها، وعلى ذلك الكتاب والسنة والإجماع.

وفي كتابي **سلاقة الخلف في طريقة السلف (٢٤٧-٢٣٧)**: ومن قول أهل السنة أن الجنة والنار قد خلقتا، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦]، وقال: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: ٤٦].

ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع من المعتزلة والخوارج، والأدلة على ذلك متوافرة متواترة استقصينا كثيرًا منها في كتاب الإيمان والله الحمد منها:

قوله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وقال عن النار: ﴿أَعَدَدْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا \* لِلطَّاغِينَ مَابًا﴾ [النبا: ٢١-٢٢]، وقوله تعالى في الجنة: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى \* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى \* عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْمُورَى﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ومن السنة: ما أخرجه في «الصحيحين»، أخرج البخاري (٥٢٢٦): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ أَوْ آتَيْتُ الْجَنَّةَ فَأَبْصَرْتُ قَصْرًا فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَلَمْ يَمْنَعْنِي إِلَّا عِلْمِي بِغَيْرَتِكَ». قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْ عَلَيْكَ أَغَارُ. أخرجه مسلم (٢٣٩٤).

وأخرج (٣٢٤٢): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَصَّأُ إِلَيَّ جَانِبِ قَصْرِ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا»، فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. أخرجه مسلم (٢٣٩٥).

وأخرج (٣٢٤١): حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا سَلْمُ بْنُ زَرِيرٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي

الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَأَطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

وأخرج (٣٢٤٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه مسلم (٨٦٦).

وأخرج البخاري (٤٥٠): عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الْخَوْلَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا - قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»، أخرجه مسلم (٥٣٣).

وأخرج مسلم (٢٤٥٦): عَنْ أَنَسٍ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ».

وأخرج (٢٤٥٧): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْفَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ».

وأخرج (٢٤٥٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ، عِنْدَكَ

فِي الْإِسْلَامِ مَنْفَعَةً، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ حَشَفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»،  
قال: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَزْجِي عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طُهُورًا  
تَامًا، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ  
أُصَلِّيَ.

وأخرج (٤٢٦): عن المختار بن فلفل عن أنس قال: صلى بنا رسول الله  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه  
فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا  
بِالْقِيَامِ وَلَا بِالْإِنْصِرَافِ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي»، ثم قال: «وَالَّذِي  
نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قالوا: وما  
رأيت يا رسول الله؟ قال: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وأخرج البخاري (٣٥٢١): عن سعيد بن المسيب قال البَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ  
دُرُّهَا لِلطَّوَاغِيَتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا  
لِأَلِهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَالَ: وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لِحْيِ الخُزَاعِيِّ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ  
وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ»، أخرجه مسلم (٢٨٥٦).

وأخرج مسلم (٢٨٤٦): عن أبي هريرة: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ  
وَسَلَّمَ قال: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ،  
وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ،

وَعَجَزُهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعَدُّ بِكَ مِنْ أَسَاءِ مِنْ عِبَادِي»، أخرجه البخاري (٤٨٥٠).

وأخرج (١٩١٤): عن أبي هريرة: عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ».

وأخرج البخاري (٣٤٨٢): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُدَّتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتَهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتَهَا وَلَا سَقَتَهَا إِذْ حَبَسْتُهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (٢٢٤٢).

وأخرج مسلم (٢٦١٩): عن أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَاءِ هَرَّةٍ لَهَا، أَوْ هَرٍّ، رَبَطْتُهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتَهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَرْمِرُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا».

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ فِي «شرح الطحاوية» (٤٠٠): أما قوله: "الجنة والنار مخلوقتان"، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة كذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية وأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يعلمه الله، وأنه ينبغي له أن

يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل فيهم التجهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مددًا متطاوله فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى. اهـ

فيا ليت شعري كيف سيتأولون حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود (٤٧٤٤): «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».

ومن الأدلة على وجودهما ما أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦):  
عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه  
وعلى آله وسلم قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ  
وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ  
أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، أخرجه مالك في «الموطأ» (١/١٨٦) وأحمد في «المسند» (٣/٤٥٥) والآجري في «الشريعة» (٣٩٢) وابن ماجه (٤٢٧).

والحديث يدل على أن أرواح المؤمنين في الجنة إلا من حبس لدين أو غيره، والشاهد من الحديث قوله: «طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، فلو كانت غير موجودة الآن لكان هذا الكلام لغوً وكذب والعياذ بالله.

**فائدة:** هذا الحديث يدل على أن أرواح المؤمنين طيرٌ في الجنة، أما أرواح الشهداء فهي في أجواف طير خضر كما أخرج مسلم (١٨٨٧) في صحيحه من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال مسروق: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٩٦]، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ».

وعن عبد الله بن عباس أنه قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والناس معه، ثم ذكر الحديث وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم تكعكت، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهَا لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

والحديث نص لا يحتمل التأويل والتحريف: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رأى الجنة بعينه ورأى النار بعينه، فلا ينكر وجود الجنة والنار مع وجود هذه الأدلة الصراح الصراح إلا من أزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

**الإيمان بأن الجنة والنار لا تفيان:** وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا تفيان ولا يموت أهلها قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد تقدم في الباب الأول بيان أن الجنة والنار موجودتان الآن، وسوق الأدلة على ذلك وبيان أن ذلك هو مذهب أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا الشواذ من أهل البدع والريب، ويلتحق بهذا الباب الكلام على أبديتهما.

**قال شيخ الإسلام في رسالته: (الرد على من قال بفناء الجنة والنار) (٤١):**  
وللناس في ذلك ثلاثة أقوال: قوم قالوا ببقائهما جميعًا، وقوم قالوا بفناء دار

الجزاء وبقاء دار الإفضال والإنعام والإكرام... وأما القول بفنائهما إنما حكوه عن الجهم. انتهى

**قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ في (شرح الطحاوية) (٤٠٣):** قوله: "لا تفنيان

أبدأ ولا تبيدان"، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، والقولان المذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان المذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث؛ انتهى.

والآيات البينات والأحاديث الصحيحة على هذه المسألة كثيرات وواضحات لا يعتقد خلافها إلا أهل الضلالات قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ [هود: ١٠٨]، أي: غير مقطوع، وسيأتي الإجابة على الاستثناء إن شاء الله تعالى.

وقال ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿أَكَلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا

﴿[الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿لَا

مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقال عَزَّ وَجَلَّ مؤكِّدًا خلود أهل الجنة فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، والمراد به أنهم ماتوا في الوقت الذين لم يكونوا في الجنة. ومن الأدلة على أبدية الجنة من السنة، ما أخرجه مسلم (٢٨٣٦) وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْئَسُ، لَا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ». وفي حديث أبي سعيد: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، متفق عليه.

**قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي (حادي الأرواح) (٣٢٣):** الباب السابع والستون في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبعد: وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ﴾ [هود:١٠٨]، أي: مقطوع ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٨].

وقال: والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة.

**قال ابن القيم في (حادي الأرواح) (٣٢٩-٣٣٠):** وأما أبدية النار ودوامها فقال عنها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع

في ذلك معروف عن التابعين قال: وقلت: هاهنا أقوال سبعة:

**أحدها:** أن من دخلها لا يخرج منها أبدًا، بل من دخلها خلد فيها أبد الأبدين بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

**الثاني:** أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعية نارية لهم يتلذذون بها لموافقته لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي والطائي...

**الثالث:** قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها أقوام آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٣-٦٤].

**الرابع:** قول من يقول: يخرجون منها وتبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب، حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضًا يردان على هذا القول كما تقدم.

**الخامس:** قول من يقول: بل تفتنى بنفسها؛ لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحالة بقاءه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عندهم بين الجنة والنار.

**السادس:** قول من يقول: تفتنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة.

**السابع:** قول من يقول بل يفنيها ربها، وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه تفتنى ويزول عذابها.

**قال شيخ الإسلام:** وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم. اهـ

وذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٦)، هذا التقسيم وقال في آخره:

**الثامن:** أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئًا ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدًا تنتهي إليه.

**التاسع:** أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

وما عدا هذين القولين الأخيرين، ظاهر البطلان، وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهم. انتهى والقول الحق هو التاسع، والقول الثامن وإن كان قد قال به بعض السلف فهو قول غير صحيح، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّثْقِمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُقْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَنْ

تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿[النبا: ٣٠]﴾ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥].

**قال ابن أبي العز:** وقد دلت السنة المستفيضة: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

**فائدة:** ما لا يدخل في الفناء ثمانية نُظِمَتْ في هذا البيت:

ثمانية حكم البقاء يعمهاهم      من الخلق والباقون في حيز العدم

هم العرش والكرسي نار وجنة      وعجب وأروح كذا اللوح والقلم

قوله: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أي: لهؤلاء المتقين في الجنة ما أرادوا كما

قال تعالى: ﴿ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴾ [الواقعة: ٣٣]، وفي الحديث: «وَلَكَ مَا

اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَدَّتْ عَيْنُكَ»، وهذا يدل على عِظَمِ نعيم الجنة بلغنا الله عز

وجل إياها فإن من دخلها لا يحرم من شيء أرادته وعلى أكمل ما يكون في

اللذة والجمال وغير ذلك.

وعن هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ «يُنَادِي مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ أَنْ

تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا  
 فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿  
 وَنُودُوا أَنْ تَالِكُمْ الْجَنَّةُ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، أخرجه  
 مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: وعندنا لهم فوق ما  
 أعطيناهم مزيد، وقد فسرهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنظر إلى وجه الله  
 عز وجل.

**وقد قلت في كتابي سلاقة الخلف في طريقة السلف:** من عقيدة أهل السنة  
 والجماعة التي خالفوا فيها المبتدعة إثبات رؤية المؤمنين لربهم سبحانه  
 بأعينهم يوم القيامة في موطنين، المحشر والجنة، وقد يسر الله تعالى بجمع  
 طيب اسميته: (رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار)، واعلم أن  
 الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة هو معتقد أهل السنة  
 والجماعة المؤيد بالأدلة الجلية والبراهين الثقيلة والشواهد العقلية.

**قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي (لاميته):** وقال أبو بكر بن أبي  
 داود في (حائيته):

وقل يتجلى الله للخلق جهرَةً	كما البدر لا يخفى وربك أوضح
وليس بمولود وليس بوالد	وليس له شبه تعالى المسبَّح
وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا	بمصدق ما قلنا حديث مصرح
رواه جرير عن مقال محمد	فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح

وللناس في هذا الباب ثلاثة مذاهب:

**قال شيخ الإسلام كما في (المجموع) (٢/ ٣٣٦-٣٣٧):** وَالنَّاسُ فِي رُؤْيَا

اللَّهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

**فَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ:** عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَرَى فِي الْآخِرَةِ  
بِالْأَبْصَارِ عَيْنَانَا وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ؛ لَكِنْ يَرَى فِي الْمَنَامِ وَيَحْصُلُ  
لِلْقُلُوبِ - مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ وَالْمُشَاهَدَاتِ - مَا يُنَاسِبُ حَالَهَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَقَوَّى مُشَاهَدَةَ قَلْبِهِ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ بِعَيْنِهِ؛ وَهُوَ  
غَالِطٌ، وَمُشَاهَدَاتُ الْقُلُوبِ تَحْصُلُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ وَمَعْرِفَتِهِ فِي صُورَةٍ  
مِثَالِيَّةٍ كَمَا قَدْ بُوْطِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

**وَالْقَوْلُ الثَّانِي:** قَوْلُ نَفَاهِ الْجَهْمِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

**وَالثَّلَاثُ:** قَوْلُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَحُلُولِيَّةِ الْجَهْمِيَّةِ  
يَجْمَعُونَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ  
وَإِنَّهُ يَرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اهـ

والمخالفون هم أهل البدع، قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية) (١٨٣):

المخالف في الرؤية: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.  
وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة.

وقد قال بشبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون  
بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى

السنة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون؛ انتهى.

ومن الأدلة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في المحشر ثم في الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

**والشاهد من الآية:** قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، أي: تنظر إلى ربها سبحانه بعيني رأسها، فقد قال عبد الله بن أحمد في (السنة) (٤٨١): حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ، نَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ، عَنْ عِكْرِمَةَ: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا.

وفي رواية ابن جرير (١٩٢/٢٩): تنظر إلى ربها نظراً، وعند الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص ٢٠٠): ينظرون إلى الله نظراً.

وقال عبد الله (٤٨٢): حَدَّثَنِي أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ، نَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، نَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ: فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، قَالَ: حَسَنَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٢٧٢):

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ووجه

الاستدلال بها أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضًا محجوبين عنه، وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره من المزي قال سمعت الشافعي يقول في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة، وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها ما تقول في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا. اهـ

ومنها قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنكُمْ مَلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، واللقاء لا يكون إلا معاينة، وعلى هذا إجماع أهل اللغة.

قال الآجري في «الشرعية» (٩٨١/٢) (ط/ الوطن): وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، واعلم رحمك الله أن عند أهل العلم باللغة أن اللقاء هاهنا، لا يكون؛ إلا معاينة يراهم الله تعالى ويرونه، ويسلم عليهم، ويكلمهم ويكلمونه. اهـ

ومن أدلة الرؤية في السنة النبوية: ما اتفق عليه البخاري ومسلم من حديث

جرير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعنى البدر- فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قالوا: لا. قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيَتِ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانَنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبَّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبَّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبَّنَا، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِيهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟». قالوا: نعم. قال: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظْمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخَطَّفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدُلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةً مِنْ أَرَادَ

مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَشُوا فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، رَأَى بِهَجَّتِهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَعْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيُضْحِكُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ:

تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُدَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ.

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَ اللَّهُ: لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ»، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلا قوله: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قال أبو سعيد إني سمعته يقول: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ»، متفق عليه.

ومن أدلة رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (حادي الأرواح) (٢٧٣): قال الطبراني: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، وقاله من التابعين: زيد بن وهب وغيره. اهـ

وعند مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨١): من طريق حمَّاد بن سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي كَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ؛ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ

شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وأخرجه الدارقطني في (الرؤية) رقم (١٩٢): عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، أَوْ قُرِئَتْ عِنْدَهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالُوا: وَمَا الزِّيَادَةُ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقد أخرج ابن جرير الطبري وغيره الآثار الموقوفة والمقطوعة التي فيها تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل.

**قال ابن جرير في (تفسيره) (١٧٦٣٩):** حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثَنَا هُوَذَةُ، قَالَ: ثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، النَّظَرُ إِلَىٰ الرَّبِّ.

**وأخرج الدارمي في (الرد على الجهمية) (١٩٤):** عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: الزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

**وقال عبد الرزاق في (التفسير) (٢/٢٩٦):** عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ. **وقال (٢/٢٩٤):** عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا

الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ فِيمَا بَلَّغْنَا النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

وأخرج الدارقطني في (الرؤية) (٢٠٢): عَنْ حُدَيْفَةَ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وأخرج البخاري (٤٨٧٨): عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فَضِّةٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»، الحديث أخرجه مسلم (١٨٠).

ومن أدلة الرؤية، قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (حادي الأرواح) (٢٧٤): فَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ \* قَالَ كَلَّا ﴿ [الشعراء: ٦١-٦٢]، فلم ينف عن موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، إِنَّا لَمُرْتَبُونَ، فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم، بقوله: ﴿كَلَّا﴾ [الشعراء: ٦٢]، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى

مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِبَ عِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا  
تَخْشَىٰ ﴿طه: ٧٧﴾، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب  
تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة  
والأئمة من الآية. اهـ

شبه المخالفين لأهل السنة في باب الرؤية:

**الشبهة الأولى:** قولهم: المراد بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ \*  
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، أي: منتظرة، أو منتظرة لثوابه، ويُرد عليهم بما  
قاله ابن القيم في (حادي الأرواح) (٢٣٧-٢٣٨): وأنت إذا أجرت هذه الآية  
من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها  
وجدتها مناديةً نداءً صريحاً أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة،  
وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلًا؛ فتأويل نصوص المعاد  
والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل  
نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول  
النصوص ويحرفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده  
متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى  
الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة، تدل على أن المراد بالنظر  
المضاف إلى الوجه المعدى إلى خلاف حقيقته وموضوعه، صريح في أن

الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن عدي بـ: (في) فمعناه التفكير والاعتبار كقوله: ﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإن عدي بـ: (إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. اهـ

**وقال رَحِمَهُ اللهُ كَمَا فِي (الصواعق المرسلّة) (١/١٩٣-١٩٤):** يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب؛ فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعدّاه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا، ووصف الوجوه بالنصرة التي لا تحصل؛ إلا مع حضور ما يتنعم به لا مع التنغيص بانتظاره، ويستحيل مع هذا التركيب. اهـ

**وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في (نقضه على المريسي) (٥٢٤-٥٢٦):**  
قَالَ الْمُعَارِضُ: فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّظْرُ إِلَى وَجْهِهِ نَظْرًا إِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ النَّظْرِ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْجَنَانِ؟

فِيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ: قَدْ جِئْتَ بِتَفْسِيرٍ طَمَّ عَلَى جَمِيعِ تَفَاسِيرِكَ صَحِيحَةً وَجَهَالَةً، وَلَوْ قَدْ رَزَقَكَ اللهُ شَيْئًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَعَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي رَوَيْتَهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِهِذِهِ السِّيَاقَةِ، وَهَذِهِ

الألفاظ الواضحة لا يحتَمِلُ تَفْسِيرًا غَيْرَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَتَلَا تَصْدِيقَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِلَى وَجْهِ اللَّهِ»، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى وَجُوهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ، وَمَنْ سَمَى مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَجْهًا لِلَّهِ قَبْلَكَ؟ وَفِي أَيِّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَجَدْتَ أَنَّ وَجْهَ اللَّهِ أَعْلَى جَنَّتِهِ؟ مَا لَقِيَ وَجْهَ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ مِنْ تَفَاسِيرِكَ؟! مَرَّةً تَجْعَلُهُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ وَجْهَ الْقِبْلَةِ، وَمَرَّةً تُشَبِّهُهُ بِوَجْهِ الثَّوْبِ وَوَجْهِ الْحَائِطِ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَمَّا تَتْلَعَبُ بِوَجْهِهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فَإِنْ كَانَ كَمَا ادَّعَيْتَ أَنَّ أَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ الَّتِي يَتَوَقَّعُونَهَا مِنَ اللَّهِ، أَفَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِكَ أَيْضًا: «إِنَّ أَدْنَاهُمْ مَنْزِلَةٌ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ جَنَاتِهِ وَنَعِيمِهِ وَكَرَامَاتِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَإِنَّ الْأَذْنِينَ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مِنْ كَرَامَاتِ اللَّهِ مَا يَتَوَقَّعُ أَكْرَمُهُمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَعْلَى الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَكْرَمُهُمْ»؟.

مَا مَوْضِعُ تَمْيِيزِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْأَذْنَى بِالنَّظَرِ إِلَى مُلْكِهِ وَنَعِيمِهِ، وَالْأَعْلَى إِلَى وَجْهِهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً؛ إِذْ كُلُّهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا غَيْرُ مَحْجُوبِينَ، وَلَا عَنِ التَّوَقُّعِ مَمْنُوعِينَ حَتَّى تَلَا رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَكْرَمِينَ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَتَلْ فِي الْأَدْنِيِّينَ مِنْهُمْ  
 تَشْبِيهًا لِوَجْهِهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَتَكْذِيبًا لِدَعْوَاكَ، فَقَالَ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ  
 نَّاضِرَةٌ \* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَىٰ كَرَامَاتِهَا نَاظِرَةٌ،  
 فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَوْحَشَهَا مِنْ تَأْوِيلِ، وَأَفْبَحَهَا مِنْ تَفْسِيرِ، وَأَشَدَّهَا اسْتِحَالَةً فِي  
 جَمِيعِ لُغَاتِ الْعَالَمِينَ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَرْزُقْكَ مِنَ الْفَهْمِ إِلَّا مَا تَرَى، لَوْ تَكَلَّمَ  
 بِهِذَا صَبِيانَ الْكِتَابِ لَأَسْتَضْحَكَ النَّاسُ مِنْهُمْ فَكَيْفَ رَجُلٌ يَعُدُّ نَفْسَهُ مِنْ عِدَادِ  
 عُلَمَاءِ بِلَادِهِ. اهـ

**الشبهة الثانية:** استدلالهم بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ  
 يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: وهذه الآية دليل على أنه لا يرى سبحانه  
 وتعالى.

وقد تقدم بيان أن (الإدراك) رؤية وزيادة، رؤية مع الإحاطة، والإحاطة  
 منفيه في حق الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فهم  
 يرونه بغير إحاطة، وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية إلى الله عَزَّ  
 وَجَلَّ يوم القيامة.

**الشبهة الثالثة:** استدلالهم بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]،  
 على أنه لا يرى، وبأن «لن» تفيد التأييد.

**قال ابن أبي العز في (شرح الطحاوية) (١٩١-١٩٢):** فالاستدلالُ مِنْهَا عَلَى  
 ثُبُوتِ رُؤْيَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ:

**أَحَدَهَا:** أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِيمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمَ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَفْتِهِ،  
أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالَ.

**الثاني:** أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنَكِّرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ  
سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْظَمُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

**الثالث:** أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أَرَى،  
أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرِيٍّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ  
مَنْ كَانَ فِي كُمَّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعَمْنِيهِ، فَالْجَوَابُ الصَّحِيحُ:  
أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَا إِذَا كَانَ طَعَامًا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى  
أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرِيٍّ، وَلَكِنَّ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِضَعْفِ  
قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى.

يُوضِّحُهُ الْوَجْهُ الرَّابِعُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ  
مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا  
يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّي فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خَلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

**الخامس:** أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقَرًّا، وَذَلِكَ مُمَكِّنٌ،  
وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرٌ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اسْتَقَرَّ الْجَبَلَ  
فَسَوْفَ أَكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَا. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

**السادس:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]،  
فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَّجَلَّى لِلْجَبَلِ، الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ

يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرَسُولِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ؟ وَلَكِنْ اللَّهُ أَعْلَمُ مُوسَى أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَيْهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَوْضَعُفُ.

**السَّابِعُ:** أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَاَزَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمَ وَالتَّكْلِيمَ وَأَنْ يُسْمِعَ مُحَاطِبُهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيَيْتُهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ؛ وَلِهَذَا لَا يَتَمُّ إِنْكَارُ رُؤْيَيْهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا.

وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْيِيدُ النَّفْيِ بِ(لَنْ) وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الآخِرَةِ؛ فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قِيدَتْ بِالتَّأْيِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الرَّحُف: ٧٧]، وَلِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلتَّأْيِيدِ الْمُطْلَقِ لَمَا جَاَزَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يُوسُف: ٨٠]، فَثَبَّتَ أَنَّ لَنْ لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

**قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:**

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ ازْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا  
انتهى.

**الشبهة الرابعة:** زعمهم أن الرؤية المراد بها العلم بالله.

**قال عثمان بن سعيد الدارمي (٥٢٨-٥٣٣):** وَاحْتَجَّ الْمُعَارِضُ أَيْضًا فِي

إِنْكَارِ الرُّؤْيَةِ بِحَدِيثِ رَوَاهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ضَرَبَ الْعُرَى بِالسِّيفِ فَقَالَ لَهُ: "كُفْرَانُكَ، لَا سُبْحَانَكَ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ."

**قَالَ الْمُعَارِضُ:** فَهَذِهِ رُؤْيَةٌ عِلْمٍ لَا رُؤْيَةٌ بَصَرٍ. قَالَ: يَعْنِي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَرُونَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَنَحْوِ مَا رَأَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي دُنْيَاهُ.

**قَالَ الْمُعَارِضُ:** وَفَسَّرَ قَوْمٌ أَنَّ الرُّؤْيَةَ لِلشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعِلْمِ، كَمَا يُقَالُ: رَأَيْتُ الْخَلَّ شَدِيدَ الْحُمُوضَةِ، وَرَأَيْتُ الْعُودَ طَيِّبًا، يُرِيدُ رَائِحَتَهُ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وَلَمْ يَرَهُ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ. وَكُلُّ شَيْءٍ يُدْرِكُ بِالرُّؤْيَةِ فَلَهُ قَلَّةٌ وَكَثْرَةٌ.

فَاللَّهُ الْمُتَعَالِي عَنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يُرَى بِدَلَالِيهِ وَأَثَارِ صُنْعِهِ، فَهِيَ شَوَاهِدٌ لَا الِّدِي يُعْرَفُ بِمُلَاقَاةٍ وَلَا بِمُشَاهَدَةٍ حَاسَّةٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَهَبَتِ الشُّكُوكُ وَعَرَفُوهُ عَيَانًا، لَا بِإِدْرَاكِ بَصَرٍ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ الرَّوَايَاتُ فَهَا هُنَا رَوَايَاتٌ أَيْضًا مُعَارِضَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلُ فَهَا هُنَا مَا يَحْتَمِلُ أَيْضًا.

فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ: أَمَّا الرَّوَايَاتُ فَمَا نَرَاكَ تَحْتَجُّ فِي جَمِيعِ مَا تَدَّعِي إِلَّا بِكُلِّ أَعْرَاجٍ مَكْسُورٍ، بِالتَّجَهُّمِ مَشْهُورٍ، وَفِي أَهْلِ السُّنَّةِ مَعْمُورٌ، وَأَمَّا الْمَعْقُولُ الِّدِي تَدَّعِيهِ مِنْ كَلَامِكَ فَقَدْ أَنْبَأْنَاكَ أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَجْهُولٌ، وَعِنْدَ الْعُلَمَاءِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، لَا يَخْفَى تَنَاقُضُهُ إِلَّا عَلَى كُلِّ جَهُولٍ.

### مذهب الأشاعرة في الرؤية

وذهب الأشاعرة إلى أن الله تعالى يُرى لا في جهة.

**قال شيخ الإسلام كما في (المجموع) (٨٤-٨٩):** قَوْلُ هُوَ لَاءٍ: "إِنَّ اللَّهَ يُرَى

مِنْ غَيْرِ مُعَايِنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ"، قَوْلُ انْفَرَدُوا بِهِ دُونَ سَائِرِ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ وَجُمْهُورِ

العُقَلَاءِ عَلَى أَنْ فَسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ.

وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تَرُونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قَالُوا: نَعَمْ. «وَهَلْ تَرُونَ الْقَمَرَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟»، قَالُوا نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبَّهِ الْمَرْتَبِي بِالْمَرْتَبِي؛ فَإِنَّ الْكَافَ - حَرْفَ التَّشْبِيهِ - دَخَلَ عَلَى الرُّؤْيَةِ.

وَفِي لَفْظِ اللَّبْخَارِيِّ «يَرُونَهُ عِيَانًا»، وَمَعْلُومٌ أَنَّا نَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عِيَانًا مُوَاجِهَةً فَيَجِبُ أَنْ نَرَاهُ كَذَلِكَ. وَأَمَّا رُؤْيَاهُ مَا لَا نُعَايِنُ وَلَا نُوَاجِهُهُ فَهَذِهِ غَيْرُ مُتَّصِرَةٍ فِي الْعَقْلِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ كَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وَلِهَذَا صَارَ حُدُثَهُمْ إِلَى إِنْكَارِ الرُّؤْيَةِ وَقَالُوا: قَوْلُنَا هُوَ قَوْلُ الْمُعْتَرِلَةِ فِي الْبَاطِنِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الرُّؤْيَةَ بِزِيَادَةِ انْكِشَافٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تُنَازِعُ فِيهِ الْمُعْتَرِلَةُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْخَبَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَرُونَهُ لَا فِي جِهَةٍ وَقَوْلُهُ: «لَا تَضَامُونَ»، مَعْنَاهُ لَا تَضُمَّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنَّهُ لَا فِي جِهَةٍ، فَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلْحَدِيثِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا قَالَه أَحَدٌ مِنْ أئِمَّةِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ تَفْسِيرٌ مُنْكَرٌ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلُغَةً. فَإِنَّ قَوْلَهُ «لَا تَضَامُونَ» يُرْوَى بِالتَّخْفِيفِ، أَي: لَا يَلْحَقُكُمْ صِيْمٌ فِي رُؤْيَيْهِ كَمَا يَلْحَقُ النَّاسَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ الْحَسَنِ كَالهَلَالِ فَإِنَّهُ قَدْ يَلْحَقُهُمْ

صَيِّمٌ فِي طَلَبِ رُؤْيِيهِ حِينَ يُرَى؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَجَلَّى تَجَلِّيًّا ظَاهِرًا فَيَرُونَهُ كَمَا تَرَى الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِلاَ صَيِّمٍ يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيِيهِ؛ وَهَذِهِ الرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ.

وَقِيلَ: «لَا تَضَامُونَ»، بِالتَّشْدِيدِ أَي: لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ كَمَا يَتَضَامُ النَّاسُ عِنْدَ رُؤْيِيَةِ الشَّيْءِ الْخَفِيِّ كَالِهَالِالِ. وَكَذَلِكَ (تَضَارُونَ) وَ(تَضَارُونَ). فِيمَا أَنَّ يُرَوَى بِالتَّشْدِيدِ وَيُقَالُ: «لَا تَضَامُونَ» أَي: لَا تَضُمَّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فَهَذَا بَاطِلٌ لِأَنَّ التَّضَامَ انْضِمَامُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ. فَهُوَ (تَفَاعُلٌ) كَالْتَّمَّاسِ وَالتَّرَادِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ يُرَوَى «لَا تَضَامُونَ» بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ أَي لَا يُضَامُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

وَبِكُلِّ حَالٍ فَهُوَ مِنْ (التَّضَامِ) الَّذِي هُوَ مُضَامَةٌ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، لَيْسَ هُوَ أَنَّ شَيْئًا آخَرَ لَا يُضُمَّكُمْ، فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُقَالُ فِيهِ: «لَا تَضَامُونَ» فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ "لَا يُضُمَّكُمْ شَيْءٌ".

ثُمَّ يُقَالُ: الرَّاءُونَ كُلُّهُمْ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَرْتَبِيَّ لَيْسَ فِي جِهَةٍ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: "لَا تَضُمَّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ"، وَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ أَرْضِ الْقِيَامَةِ أَوْ فِي الْجَنَّةِ وَكُلُّ ذَلِكَ جِهَةٌ وَوُجُودُهُمْ نَفْسُهُمْ لَا فِي جِهَةٍ وَمَكَانٍ مُتَمَتِّعٍ حِسًّا وَعَقْلًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: "هُوَ يُرَى لَا فِي جِهَةٍ فَكَذَلِكَ يَرَاهُ غَيْرُهُ"، فَهَذَا تَمَثِيلٌ بَاطِلٌ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَرَى بَدَنَهُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرَى غَيْرَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِجِهَةٍ مِنْهُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَمَامَهُ سَوَاءً كَانَ عَالِيًا أَوْ سَافِلًا. وَقَدْ تُخَرِّقُ لَهُ الْعَادَةُ فَيَرَى مَنْ

خَلْفَهُ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِي»،  
 وَفِي رِوَايَةٍ «مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي»، وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ «إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَائِي»،  
 وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ «إِنِّي وَاللَّهِ لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ  
 يَدَيَّ»، لَكِنْ هُمْ بِجِهَةِ مِنْهُ وَهُمْ خَلْفَهُ. فَكَيْفَ تُقَاسُ رُؤْيَةُ الرَّائِي لِغَيْرِهِ عَلَى  
 رُؤْيِيهِ لِنَفْسِهِ؟

ثُمَّ تَشْبِيهُ رُؤْيِيهِ هُوَ بِرُؤْيِيَّتِنَا نَحْنُ تَشْبِيهُ بَاطِلٌ. فَإِنَّ بَصْرَهُ يُحِيطُ بِمَا رَأَهُ  
 بِخِلَافِ أَبْصَارِنَا. وَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ أَثْبَتُوا مَا لَا يُمَكِّنُ رُؤْيِيَّتَهُ وَأَحْبَبُوا نَصْرَ مَذْهَبِ  
 أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْحَدِيثِ فَجَمَعُوا بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ. فَإِنَّ مَا لَا  
 يَكُونُ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا يُشَارُ إِلَيْهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَى بِالْعَيْنِ لَوْ كَانَ  
 وَجُودُهُ فِي الْخَارِجِ مُمَكِّنًا فَكَيْفَ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ؟ وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ غَيْرِ  
 أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْوَهْمِ وَالْخِيَالِ الْبَاطِلِ. وَلِهَذَا  
 فَسَّرُوا (الْإِدْرَاكَ) بِالرُّؤْيِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، كَمَا  
 فَسَّرْتَهَا الْمُعْتَزِلَةُ. ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ. اهـ

**مسألة:** هل رأى رسول الله ربه؟

**الجواب:** قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ \* أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا

يَرَى \* وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى \* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿[النجم: ١١-١٤].

**قال الإمام مسلم رحمه الله (١٧٧):** حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا اسْمَعِيلُ

بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ؛

فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ: رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، فَقَالَتْ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي عَدِيٍّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦١٢) بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةً.

وعند مسلم (١٧٨): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ، فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا»، وفي لفظ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، والنور الذي رآه هو حجابيه.

**قال شيخ الإسلام كما في (المجموع) (٦/٥٠٧-٥٠٨):** فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: مَعْنَاهُ: كَانَ ثَمَّ نُورٌ وَحَالَ دُونَ رُؤْيَيْهِ نُورٌ فَأَنَّى أَرَاهُ؟ قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: أَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ؟ فَقَالَ: «رَأَيْتَ نُورًا»، وَقَدْ أُعْضِلَ أَمْرُ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى صَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: «نُورًا إِنِّي أَرَاهُ»، عَلَى أَنَّهَا يَاءُ النَّسَبِ؛ وَالْكَلِمَةُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. وَهَذَا خَطَأٌ لَفْظًا وَمَعْنَى وَإِنَّمَا أَوْجَبَ لَهُمْ هَذَا الْإِشْكَالَ وَالْخَطَأَ أَنَّهُمْ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ وَكَانَ قَوْلُهُ: «أَنَّى أَرَاهُ؟»، كَالْإِنْكَارِ لِلرُّؤْيَا حَارُوا فِي الْحَدِيثِ، وَرَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِاضْطِرَابِ لَفْظِهِ، وَكُلُّ هَذَا عُدُولٌ عَنْ مُوجِبِ الدَّلِيلِ.

وَقَدْ حَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ فِي كِتَابِ الرَّدِّ لَهُ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَرِ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَبَعْضُهُمْ اسْتَشْنَى ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ ذَلِكَ.

**وَشَيْخُنَا يَقُولُ:** لَيْسَ ذَلِكَ بِخِلَافٍ فِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يَقُلْ رَأَاهُ بَعَيْنِي رَأْسَهُ، وَعَلَيْهِ اعْتَمَدَ أَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ رَأَاهُ؛ وَلَمْ

يَقُلُّ بَعِينِي رَأْسِهِ. وَكَفَّظُ أَحْمَدُ كَلْفَظِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ شَيْخُنَا فِي مَعْنَى حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «حِجَابُهُ النُّورُ»، فَهَذَا النُّورُ هُوَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - النُّورُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: «رَأَيْتُ نُورًا». اهـ

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: وكثيرًا أهلكتنا قبل هؤلاء المشركين من القرون مع أنهم أشد قوة وبطشًا وظلمًا من قريش كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]، إلى غير ذلك من الآيات وتنوع طرق إهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ هم القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون، ويطلق على الأمة، وقيل: في القرن بأنه مئة سنة، وقيل غير ذلك، وفي صحيح ابن حبان: عن أبي أمامة: أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِيَّ كَانِ آدَمُ؟

قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشْرَةُ قُرُونٍ».

وففي صحيح البخاري (٢/ ٩٣٨): عن عمران بن حصين رضي الله عنهما

قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

قوله تعالى: ﴿بَطْشًا﴾ و**البطش**: تناول الشيء بسهولة ومن هؤلاء الذين

هم أشد بطشًا من قريش عاد، وثمود، وفرعون وغيرهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ \*

وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ الْوَادِ \* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ \* الَّذِينَ طَغَوْا فِي

الْبِلَادِ \* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ \* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ \* إِنَّ

رَبَّكَ بِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ

يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ

بَبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ **النقب** في الحائط والجلد كالثقب يقال

نقب البيطار سرة الدابة بالمنتقب وهو الذي ينقب به، والمنتقب المكان الذي

ينقب ونقب القوم ساروا، ونقب أفاده الراغب قال مجاهد في قوله: ﴿فَنَقَّبُوا

فِي الْبِلَادِ﴾ [ق: ٣٦]: ضربوا في البلاد، ومعنى الآية: أنهم ساروا وتقلبوا فيها

وطافوا بقاعها كما قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ومنه قول امرؤ القيس في معنى التطواف:

وقد نقتبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وذكر ابن جرير أن في قوله: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ [ق:٣٦]، قراءتين:

**الأولى:** المشهورة بالتشديد وفتح القاف على وجه الخبر عنهم، قال:

وذكر عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأ: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ [ق:٣٦]، بكسر القاف على

وجه الأمر بمعنى التهديد والوعيد أي حلوا في البلاد وترددوا فيها فإنكم لن

تفتوتونا بأنفسكم. اهـ

والقراءة الأولى أشهر ومعناها أظهر، فقد أخبر الله عز وجل في آيات

كثيرات عن مثل ذلك تحذيرًا للسامعين وبيانًا لقدرة الله عز وجل، ومنها قوله

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: هي من منجى كما قال ابن زيد،

وقال ابن قتيبة: أي هل يجدون من الموت محيصًا فلم يجدوا ذلك، والمعنى

أنه لا مفر لهم من قضاء الله عز وجل وقدره لَمَّا كذبوا الرسل واعرضوا عن

دعوتهم ولا مفر وكما قيل:

أين المفر والإله الطالبُ والأشرم المغلوب ليس الغالبُ

فلا مفر من الله عز وجل إلا إليه فإنه لا عاصم من بطشه ونقمته، وكما

قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ

بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [الفصص: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما تقدم من الآيات العظيمة ومنها ما قص الله من إهلاك الأمم السابقة.

قوله تعالى: ﴿لَذِكْرِي﴾ أي: تذكره وموعظة.

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: فهم وعقل، قال ابن زيد: قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي عذب الله بها من عصاه من الأمم، ذكره ابن جرير وقال: والقلب في هذا الموضع العقل وهو من قولهم ما لفلان قلب وما قلبه معه، وأين ذهب قلبك يعني: أين ذهب عقلك. اهـ  
وقال قتادة: يعني بذلك القلب الحي.

والعقل في القلب كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال بعضهم: في الدماغ والصحيح أنه في القلب وبين الدماغ والقلب تعلق.

قال شيخ الاسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩): وأما قوله: أين مسكن العقل فيه؟ فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقيل لابن عباس: بماذا نلت العلم؟ قال: بلسان سؤال، وقلب عقول.

لكن لفظ: [ القلب ] قد يُراد به المضغعة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن، التي جوفها علقة سوداء، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً، فإن قلب الشيء باطنه، كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك، ومنه سمي القلب قليباً؛ لأنه أخرج قلبه وهو باطنه، وعلى هذا، فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماعه أيضاً؛ ولهذا قيل: إن العقل في الدماغ، كما يقوله كثير من الأطباء، ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة من أصحابه: إن أصل العقل في القلب، فإذا كمل انتهى إلى الدماغ.

**والتحقيق:** أن الروح التي هي النفس لها تعلق بهذا وهذا، وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ، ومبدأ الإرادة في القلب.

والعقل يراد به: العلم، ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة، وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد، فلا بد أن يكون القلب متصوراً، فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ، وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح، وهذا مقدار ما وسعته هذه الأوراق، والله أعلم. " اهـ قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه

وعقله قلبه وتفهمه لبه، كما يقال: ألقى سمعك أي: استمع.

**قال الشوكاني رحمه الله:** والمعنى أنه ألقى السمع إلى ما يُتلى عليه من

الوحي الحالي لما جرى على تلك الأمم. اهـ.

قوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: حاضر القلب والفهم؛ لأن من لم يفهم في

حكم الغائب وسبب عدم فهمهم المرض الذي في قلوبهم، قال عز وجل: ﴿

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

مَاذَا قَالَ أَنْفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦].

**قال الراغب في مفرداته:** الشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إما

بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقول للحضور مفردًا.

فدلت الآية على أن الانتفاع بالتذكير لمن جمع ما تقدم كان حاضر القلب

والسمع، أسأل الله أن يجعلنا منهم، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تُعْنِي

الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَذَكَرْنَا فِئْتَانَ

الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فدل ذلك على أنه لا ينتفع بوحى الله

عز وجل إلا من حضر قلبه وأوعى سمعه وكان قبل ذلك موفقًا من الله تعالى.

وهذا مثل عظيم لحال المؤمن مع خبر الله عز وجل وخبر رسول الله صلى

الله عليه وسلم عن المغيبات فيعتقدونها ويؤمنون بها كأنها رأي العين، وسبب

ذلك انتفاعهم بالذكرى وحضور قلوبهم عند سماعها تصديق خبرها، وبيان

ذلك أن الله عز وجل أخبر عن نفسه أنه أصدق قبيلاً فقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ

الله قِيلاً ﴿[النساء: ١٢٢]، وأحسن حديثاً: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وكلامه بين واضح كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

فمثل هذه الأخبار في حكم المشاهدة بل أعظم من ذلك، وقد أمتدح الله عز وجل أهل الإيمان بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ويدخل في ذلك الإيمان بالأسماء والصفات والإيمان باليوم الآخر والحمد لله الذي وفق من شاء من خلقه لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ يذكر الله تعالى أنه خلق السموات العالية والعظيمة، والأرض الواسعة الكبيرة في ستة أيام وهذا بيان لكمال قدرته وقوته وأنه لا يعجزه شيء في السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وهذه الآية تدل على أن مدة خلق السموات والأرض ستة أيام مع غيرها من الآيات إلا أن بعضهم أستشكلوا قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَتُنْكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ \* ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ \* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ

في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا ﴿[فصلت: ٩-١٢]

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ \* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ \* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[فصلت: ٩-١٢]، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا \* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا \* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا \* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا \* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات: ٢٧-٣١]، قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض.

وفي صحيح البخاري (١): أن ابن عباس سُئِلَ عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: ﴿ وَالْأَرْضُ

بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا \* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا \* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا \* [النازعات:

٣٠-٣٢] ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفسير -أيضاً- من رواية ابن جريج قال: أخبرني اسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ».

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأخبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً، وقد حرر ذلك البيهقي. اهـ

**فالشاهد:** أن مجموع خلق السموات والأرض ستة أيا فقط، ثم إن الله عز وجل فعل ذلك لحكمة وإلا لو أراد أن يوجد هـما بقوله كن لكائنا، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٥].

قوله ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ يقول: وما مسنا من تعب، ولا نصب، ولا إعياء، وسائمة، ولا إزحاف، ولا عناء وكلها ألفاظ تدل على معنى واحد وهو أن الله عز وجل لكمال قوته وقدرته خلق السموات والأرض ولم يلحقه من ذلك شيء كما قال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْجِبْ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وهذه من الصفات المنفية التي تقدم بيان القول فيها، وأنه لا بد أن يثبت لله عز وجل منها كمال الضد وأتى بالصفة السلبية هنا لدفع توهم نقيص في حق الله.

وذكر ابن جرير رحمه الله عن قتادة في ذلك فقال: أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفري على الله، وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فكذبهم الله عز وجل وقال: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

وكل ما ذكره الله عز وجل مما تقدم من قدرته على خلق هذه الآيات العظيمة والتصرف فيها لبيان قدرته على البعث بعد الموت حجة على

الكافرين والمعاندين.

ونفى سبحانه وتعالى اللغوب؛ لكمال قوته، وهكذا والأصل وصف الله عز وجل بالإثبات والنفي إنما يذكر لبيان عموم كماله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، أو لدفع ما دعاه في حقه المبطلون كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأخلاق: ٣]، أو لدفع توهم نقص كمال قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، والألفاظ في باب الأسماء والصفات ثلاثة:

**الأول:** ما اثبتته الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أثبتناه.

**الثاني:** ما نفاه الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم نفيناه مع إثبات كمال ضده.

**الثالث:** ما لم يذكر في الكتاب والسنة نفيًا ولا إثباتًا لا نثبته ولا نفيه ولكن يُتوقف في اللفظ ويستفصل عن المعاني.

وقد وضع الشنقيطي في كتاب دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، الآية، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء بدليل لفظية، ثم التي هي للترتيب والانفصال، وكذلك آية حم السجدة تدل أيضًا على خلق الأرض قبل خلق السماء؛ لأنه قال فيها: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]. إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

**دُحَانٌ** ﴿فصلت: ١١﴾، الآية، مع آية النازعات تدل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء لأنه قال فيها: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠].

واعلم أولاً: أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات فأجاب: بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك، فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السماء، ويدل لهذا أنه قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، ولم يقل خلقها، ثم فسر دحوه إياها بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه، مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه وإيضاحه: أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء ودحوها بما فيها بعد خلق السماء، وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقد مكثت زمنا طويلا أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم، وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين كل منهما تدل عليه آية من

القرآن:

**الأول:** إن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقاً ومنه قول زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرَى مَا خَلَقْتَ      وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرَى

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير: أنه تعالى نصّ على ذلك في سورة فصلت حيث قال: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠]، ثم قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١٠].

**الوجه الثاني:** أنه لما خلق الأرض غير مدحوه وهي أصل لكل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً، والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع وإن لم يكن موجوداً بالفعل، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ [الأعراف: ١١]. فقوله: ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي: بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله: ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات: ٣٠]، أي: مع ذلك فلفظة بعد بمعنى مع ونظيره قوله تعالى: ﴿ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ [القلم: ١٣]، وعليه فلا إشكال في الآية، ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد: (الأرض مع ذلك دحاهها)، وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة؛ لأنها مبنية على أن خلق السماء قبل الأرض وهو خلاف

التحقيق منها: أن (ثم) بمعنى الواو. منها: أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى:  
**﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾** [البلد: ١٧]، فما كان منها موافقاً للكتاب والسنة  
 ومنهج السلف الصالح قبل وما لا فلا وبالله التوفيق.

وفي ذلك بيان لسعة رحمة الله عز وجل وأنه لا يعذب إلا من وجب عليه  
 العذاب، ومع ذلك صاحب الكبيرة فيما دون الشرك تحت المشيئة إن شاء  
 الله عز وجل عفا عنه وإن شاء عذبه.

قال السفاريني رحمه الله:

وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتَّبِعْ مِنَ الْخَطَا      فَأَمْرُهُ مُقَوَّضٌ لَدَى الْعَطَا

فَإِنْ يَشَاءُ يَعْفُ وَإِنْ شَاءَ انْتَقَمَ      وَإِنْ يَشَاءُ أَعْطَى وَأَجْزَلَ النَّعْمَ

وقال تعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾**

**﴿ [النساء: ١١٦]، ويدخل في ذلك: الشرك الأصغر والأكبر ما بينته في شرحي على  
 كتاب التوحيد.**

قوله تعالى: **﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾** يقول تعالى ذكره لمحمد صلى

الله عليه وسلم مصبراً له على قولهم وتكذيبهم وإعراضهم: **﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا**

**يَقُولُونَ ﴾** [طه: ١٣٠]، وهذا كما قال تعالى: **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ**

**الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ**

**نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾** [الأحقاف: ٣٥].

والصبر أنواع وكله مأمور به:

**الأول:** صبر على طاعة الله عز وجل.

**الثاني:** الصبر على أقدار الله عز وجل.

**الثالث:** صبر عن نواهي الله سبحانه وتعالى، والنبى صلى الله عليه وسلم كان متحلياً بالأنواع الثلاثة على أتم وجه عرف ذلك كل من له أقل المطالعة في سيرته صلى الله عليه وسلم.

ففي الصحيح عن عبد الله قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرْبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وعنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ويدخل في ذلك: الصبر على الحكم الكوني والشرعي، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمور بالصبر فالأمر له أمر لأمته.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩]، ذكر القول لأن الأذية به أكثر من غيرها، فقد قالوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ساحر، وكذاب، ومجنون، وأنه جاء بأساطير الأولين وغير ذلك مما ذكره حتى قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ \* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ \* وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿ [الحجر: ٩٧-٩٩]

وواساه الله عز وجل بحال من قبله من الرسل حيث قال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣-٥٢]

وأمره تعالى بالصبر على مجالسة المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وفي المقابل هجر المخالفين للرسول فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، والكلام في هذا يطول.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ﴾ التسييح: تنزيه الله عز وجل، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشر فقليل أبعده الله وجعل التسييح عامًا في العبادات قولًا كان أو فعلًا أو نية أفاده الراغب.

والمتمامل لكتاب الله عز وجل وسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد كثرة ذكر الله عز وجل بالحمد والتسييح؛ وذلك أن الحمد يتضمن إثبات كل كمال لله عز وجل ويستلزم نفي جميع النقائص عن الله عز وجل. كما أن التسييح يتضمن نفي جميع النقائص عن الله عز وجل ويستلزم إثبات جميع المحامد لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ والمراد بها صلاة الفجر وصلاة العصر، وروى هذا القول الطبري عن قتادة وابن زيد ويدل عليه الأحاديث النبوية، ففي الصحيحين من حديث جرير رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَيَّ صَلَاةً قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق:٣٩].

قال ابن كثير رحمه الله: وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته حولاً ثم نسخ في حق الأمة وجوبه.

ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. اهـ  
وذكرهما الله كونهما أفضل الصلوات، قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم: «مَنْ صَلَّى الْبُرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وقال صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يَلْبَحَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا».

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ قال ابن زيد العتمة: قلت صلاة العشاء وربما دخلت فيه صلاة المغرب بالازم فإنها إحدى صلاتي الليل، وقال مجاهد: (من الليل كله)، واختار ابن جرير رحمه الله أنه أمر بصلاة المغرب والعشاء؛ لأنهما يصليان ليلاً وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا

﴿[الإسراء: ٧٨]، فهي شاملة لجميع أوقات الصلاة، وكقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أختلف العلماء في ذلك إلى ثلاثة أقوال ذكرها الطبري:

**الأول:** أنها النوافل بعد المكتوبات.

**الثاني:** أنها الذكر بعد المكتوبات.

**الثالث:** أنها الركعتان بعد المكتوبة.

واختار بن جرير أنهما الركعتان بعد المغرب قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ولولا ما ذكرت من إجماعها عليه، لرأيت أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد؛ لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عم أدبار الصلوات كلها. اهـ

واختار ابن كثير رحمه الله التسييح بعد الصلاة قال: ويؤيد هذا لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُمُ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولُ

اللَّهُ قَالَ: «تَسْبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتُحَمِّدُونَ، دُبِّرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً»، قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

قلت: والآية عامة فتشمل التسبيح بالقول والفعل، واختار هذا القول ابن عثيمين رحمه الله تعالى، وقد كان السلف يطلقون على النافلة سبحة كما قال ابن عمر: (لو كنت مسبحًا لأتممت)، وفي حديث أنس: (كانوا يصلون سبحة الضحى).

فتضمنت الآية الإشارة إلى أوقات الصلوات المكتوبات، وكذلك فضل ذكر الله عز وجل وحمده وشكره في جميع الأوقات، كما أن فيها أن ملازمة طاعة الله عز وجل من أسباب الظفر على الأعداء كما أنها من أسباب الصبر على الشدة والبلاء.

عُرف ذلك من السياقة، وفيه من الفوائد عدم المبالاة بأعراض المعرضين وجهل الجاهلين بل الإقبال على عبادة رب العالمين سبحانه وتعالى، وفيها أن المؤمنين ينبغي أن يملئ وقته بالطاعات والذكر فيجعل في مجالسه من ذكر الله نصيبًا وفي طريقه وفي جميع أوقاته كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ \* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩-٤٨]، وكما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿الرُّوم: ١٨-١٧﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم واستمع ما يوحى إليك من أحوال القيامة، وقاله بلفظ الأمر تحقيقاً لوقوعه.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ أي: يوم الصيحة كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

قوله ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ذكر المفسرون أنه يُنادى بهذه الصيحة من صخرة بيت المقدس ولم أر مرفوعاً في ذلك روى ابن جرير هذا القول عن كعب الأحبار وقتادة وبريدة، وفيه مبهم فلعل ذلك والله أعلم من الإسرائيليات، ولعله لقرب الصوت ووضحه يضمن كل واحد أنه من قربه كما في الحديث فينادي بصوت يسمعه من قرب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: نفخه الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثر الناس به يمترون، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَّ السَّاعَةَ حَقٌّ»، وقد تقدم أنها صيحتان صيحة الصعق وصيحة البعث والله أعلم.

وفي حديث أبي هريره في الصحيحين قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه

وسلم - « مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ »، قَالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ  
 أَيْبُتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ: أَيْبُتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْبُتُ، «ثُمَّ  
 يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ»، قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ  
 شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ».

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكِ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أي: من القبور إلى عرصات القيامة  
 كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ  
 يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣]، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:  
 قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿  
 كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَأَوَّلُ مَنْ  
 يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالِ مَنْ أَصْحَابِي ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ،  
 فَأَقُولُ: أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ،  
 فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا  
 دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ  
 \* إِنَّ تَعْدِبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
 ﴾ [المائدة: ١١٧-١١٨].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ».

وفي سنن الترمذي: عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالًا وَرُكْبَانًا وَتَجْرُونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ إخبار من الله عز وجل أنه هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق برها وفاجرها، قويا وضعيفا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: تنشق الأرض وينبتون كما ينبت البقل، وقد تقدم حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وفيه بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾ أي: مسرعين والسرعة ضد البطء وسرعتهم هذه إلى الداع والمنادي كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا

يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿[القمر: ٨]

قوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: أعادتهم وجمعهم وحشرهم لدينا يسير كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصفات: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ \* فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفْئَةٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، فمאל هؤلاء الكفار لا يفهمون حديثاً.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يقول تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: نحن أعلم بما يقول هؤلاء الكفار من فريتهم على الله عز وجل وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم لقدرته على إحياء الموتى، فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية، ومع ذلك لا يعاجل بالعقوبة، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَيْمَلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، أخرجهم مسلم، بل يصبر سبحانه وتعالى وتجري الأمور على مقتضى حكمته، ففي الحديث: «لَا أَحَدٌ أَصْبِرُ عَلَى أَدْوَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ١٥]، وهذا كالتسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله له: لا تحزن فنحن أعلم بما يقولون ويفعلون.

قال الشنقيطي في دفع أيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: قوله تعالى: ﴿

فَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿ هذه الآية تدل على خصوص التذكير بالقرآن بمن يخاف وعيد، وقد جاءت آخر تدل على عمومه كقوله تعالى: ﴿ فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، والجواب: أن التذكير بالقرآن عام إلا أنه لما كان المنتفع به من يخاف وعيد الله صار كأنه مختص به كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَذَكَّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، كما تقدم نظيره مرارًا.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨]، هذه الآية تدل بظاهرها على أن البيان خاص بالموقنين.

وقد جاءت آيات آخر تدل على أن البيان عام لجميع الناس كقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وكقوله: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ووجه الجمع أن البيان عام لجميع الخلق، إلا أنه لما كان الانتفاع به خاصًا بالمتقين خص في هذه الآية بهم؛ لأن ما لا نفع فيه كالعدم.

ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ ﴾ [يس: ١١]، مع أنه منذر للأسود والأحمر، وإنما خص الإنذار بمن يخشى ومن يتبع الذكر؛ لأنه المنتفع به.

قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

**الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴿[الأنعام:٩٢]، يتوهم منه الجاهل أن إنذاره صلى الله عليه وسلم مخصوص بأم القرى وما يقرب منها دون الأقطار النائية عنها لقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الأنعام:٩٢]، ونظيره قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الشورى:٧].

وقد جاءت آيات آخر تصرّح بعموم إنذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الناس كقوله تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان:١]، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** ﴾ [الأنعام:١٩]، وقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ [سبأ:٢٨]، والجواب من وجهين:

**الأول:** أن المراد بقوله: ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الأنعام:٩٢]، شامل لجميع الأرض كما رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس.

**الوجه الثاني:** أنا لو سلمنا تسليمًا جدليًا أن قوله: ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [الأنعام:٩٢]، لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة - حرسها الله - كجزيرة العرب مثلًا فإن الآيات الأخر نصت على العموم كقوله: ﴿ **لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان:١]، وذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور، وقد قدمنا ذلك واضحًا بأدلته في سورة المائدة، فالآية على هذا القول كقوله: ﴿ **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾

﴿الشعراء: ٢١٤﴾، فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم كما هو واضح والعلم عند الله تعالى.

ظاهاها خصوص الإنذار بالمنتفعين به ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقد جاءت آيات أخر تدل على عموم الإنذار كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، وقد قدمنا وجه الجمع بأن الإنذار في الحقيقة عام وإنما خص في بعض الآيات بالمؤمنين؛ لبيان أنهم هم المنتفعون به دون غيرهم كما قال تعالى: ﴿وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وبين أن الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى إيمان الأشقياء بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. اهـ  
قوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمسلط ولست بذي جبروت فتجبرهم على الإسلام وإنما عليك البلاغ كما قال تعالى ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ \* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وكما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ففي الآية تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم لما حصل من تعنت

الكافرين وإعراضهم كما أن فيها وعيد لهؤلاء المعرضين المكذبين إذ أن الله مطلع عليهم وسيجازيهم على أعمالهم.

قوله ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ أي: بلغ رسالة ربك التي أنزلها عليك وهي القرآن.

قوله: ﴿ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي: الذي يخاف وعيدي لمن عصاني بالعذاب.

وذكر ابن كثير أن قتادة كان يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك، وفيها بيان من الله عز وجل أنه لا ينتفع بالمواعظ والذكرى إلا من كان أهلاً لذلك كما قال ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، بينما غيرهم لا ينتفعون كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، بل كلما زادت آيات الله إليهم زادوا بعداً وشكاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

قال بن القيم في الفوائد (٣-١٤): قاعده جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألف سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك، على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض،

ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتقاء المانع الذي يمنع منه، تضمّنت الآية بيان ذلك كلّه بأوجز لفظ وأبينه، وادلّه على المراد.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧]، إشارة إلى ما تقدّم من أوّل السورة إلى هاهنا وهذا هو المؤثر.

وقوله: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]، فهذا هو المثل القابل، والمراد به: القلب الحيّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ \* لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا \* [يس:٦٩-٧٠]. أي: حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي: وجّه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب.

**قال ابن قتيبة:** استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه".

وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب، وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فاذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتقى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرفه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكّر.

فان قيل: اذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة "أو"

في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾، والموضع موضع واو الجمع لا موضع "أو" التي هي لأحد الشئيين.

**قيل:** هذا سؤال جيّد والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام ب "أو" باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه، تام الفطرة، فاذا فكّر بقلبه، وجال بفكره، دلّه قلبه وعقله على صحّة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ:٦]، وقال في حقهم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي.

**قال ابن القيم:** وقد ذكرنا ما تضمّنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب "اجتماع الجيوش الاسلامية لغزو المعطلة والجهمية" ص (٧-٨)، فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبي فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب، ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعى القلب،

كامل الحياة، فيحتاج الى شاهد يميّز له بين الحق والباطن، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وذكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الواعي الحي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمّله، والتفكر فيه، وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق:

**فالأول:** حال من رأى بعينه ما دعا إليه وأخبر به.

**والثاني:** من علم صدق المخبر وتيقّنه، وقال يكفيني خبره، فهو في مقام الايمان، والأوّل من مقام الاحسان، وهذا قد وصل الى علم اليقين، وترق قلبه منه الى منزلة عين اليقين، وذلك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام.

**فعين اليقين نوعان:** نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فالحاصل في الدنيا نسبتة الى القلب كنسبة الشاهد الى العين، وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين اليقين في المرتبتين.

### سورة (ق) جامعة لأصول الايمان

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى، ويغني عن كلام أهل الكلام، ومعقول أهل المعقول، فإنها تضمّنت تقرير المبدأ، والمعاد، والتوحيد، والنبوة، والايمان بالملائكة، وانقسام الناس الى هالك شقي، وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمّنت إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص

والعيوب، وذكر فيها القيامتان الكبر والصغرى، والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علم بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه، يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة، ومعه سائق يسوقه اليه، وشاهد يشهد عليه، فاذا أحضره الشاهد قال: ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق:٢٣]، أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ق:٢٤]، كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقّه.

وتأمل كيف دلّت السورة صريحًا على أن الله سبحانه وتعالى يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذّبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذّب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحًا أخرى غير هذه فينعمها ويعذّبها، كما قال: من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عندهم عرض من أعراض البدن، فيخلق روحًا غير هذه الروح، وبدنا غير هذا البدن وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل وذلك عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى.

وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكروه من المكذبين، فإنهم

لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئاً بعد شيء! فكل وقت يخلق الله سبحانه أرواحاً وأجساماً غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً؟ وإنما تعجبوا بعودتهم بأعيانهم بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، لهذا قالوا: ﴿ **أَتَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾ [الصافات: ١٦]، وقالوا: ﴿ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ [ق: ٣].

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً، بل يكون ابتداءً، ولم يكن لقوله: ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ** ﴾ [ق: ٤]، كبير معنى، فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو: أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه بأنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرّقها وتأليفها خلقاً جديداً، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته، فان شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

**أحدها:** اختلاط أجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص آخر.

**الثاني:** أن القدرة لا تتعلق بذلك.

**الثالث:** أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو أن الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء، هكذا بدأ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الانساني كله ثم يحييه فلا حكمة في ذلك.

### براهين المعاد في القرآن مبنية على أصول ثلاث

**أحدها:** تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وقال: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ \* إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨-٨٦]، وقال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [ق: ٤].

**والثاني:** تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، وقوله: ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

**الثالث:** كمال حكمته كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا

﴿[ص:٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ \* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١-١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجهه، وأنه منزّه عمّا يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنواقص.

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ [ق:٥]، مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والثمامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم، وأقواتهم، وملابسهم، ومركبهم،

وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبتت به جنّات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوّع أجناسها، وأنبتت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها.

ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]، ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، أي: مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه، والثمار، والأقوات، والحبوب: خروجكم من الأرض بعد ما غيبت فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا "المعالم" أنظر أعلام الموقعين عن رب العالمين. بيّنا ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلّم من معلّم ولا قرأ في كتاب، بل أخبر به أخباراً مفصّلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب.

ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات، بأنه

لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يُعلمن نفسه أنه باهت مباحث جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرنًا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلى إقرار المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق:١٥]، يقال لكل من عجز عن شيء: عيى به فلان بهذا الأمر، قال الشاعر

عَـيَّوْا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَـيَتْ بِبَيْضِهَا الْحَمَامَةُ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف:٣٣]، قال ابن عباس: يريد

أفعبجزنا، وكذلك قال مقاتل.

**قلت:** هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك، فإن العرب تقول: أعياني أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول: أعياني دواؤك إذا لم تهتد له، ولم تقف عليه، ولازم هذا المعنى العجز عنه، والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعيها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعيها أين تحفظها وتودعها حتى لا تُنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان وتحار أين تجعل مقرها، كما هو حال من وعى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه، وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير

القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله:  
﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨].

ثم أخبر سبحانه أنهم: ﴿ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق:١٥]، أي: أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا، ثم نبههم على ما هو أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان، فانه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.

وأي دليل أوضح من تركيب الصورة الأدمية بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم، والعظم، والعروق، والأعصاب، والرباطات، والمنافذ، والآلات، والعلوم، والإرادات، والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته.

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم ما توسوس به نفسه، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا وهو شيخ الاسلام بن تيمية: المراد بقول "نحن" ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، أي ملائكتنا، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة:٧٨]. أي: إذا قرأه عليك رسولنا جبريل.

قال: ويدل عليه قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق:١٧]، فقيد القرب المذكور

بتلقّي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطل.

ثم أخبر سبحانه أن على شماله ويمينه ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال، التي هي أقل وقوعاً، وأعظم أثراً من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

### القيامة قيامتان: صغرى وكبرى

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاءه سبحانه وتعالى، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٠]، ثم أخبر عن أخبار الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه، وشهيد يشهد عليه، وهذا غير جوارحه، وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين.

فإن الله سبحانه وتعالى يستشهد على العباد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم، وشهادة البيّنة، لا بمجرد علمه من غير بيّنة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا

يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ [ق:٢٢]، ولم يقل عنه، كما قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [هود:١١٠]، ولم يقل في شك فيه، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجىء في الفعل فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه، كأن غفلته وشكبه ابتداءً منه، فهو مبدأ غفلته وشكّه، وهذا أبلغ من أن يقال في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك.

ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عن ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنتفتح، فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله، وقوله: يقول لَمَّا يحضره: هذا الذي كنت وكتلنتي به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد.

**وقال ابن قتيبة:** المعنى: هذا ما كتبه عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيت عليه، فحينئذ قال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق:٢٤]، وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه، وإن كان واحداً، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف.

ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

**أحدها:** أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه.

**الثانية:** أنه معاند للحق يدفعه جحداً وعناداً.

**الثالثة:** أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

**الرابعة:** أنه مع منعه للخير معتد على الناس، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

**الخامسة:** أنه مريب، أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذا كان صاحب ريبة.

**السادسة:** أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتخذ مع الله إلهًا آخر يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضى له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشيطان، ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله، فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، واختاره لنفسه، وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وعلى هذا، فالقرين هنا هو شيطانه، يختصمان عند الله، وقالت طائفة: بل

قرينه هاهنا هو الملك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهل حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَكِنْ كَانَّ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]،

فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق:٢٨]، وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي: (الصافات) و (الأعراف).  
وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة (الزمر)، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة (الشعراء)، وسورة (ص).

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه، فقليل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف، قال ابن عباس: يريد ما لو عدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي. قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاض، وهذا أصح القولين في الآية.

**وفيه قول آخر:** أن المعنى ما يغيّر القول عندي بالكذب والتلبيس كما يغيّر عند الملوك والحكام، فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة، قال الفراء: المعنى ما يكذب عندي لعلمي بالغيب.

**وقال ابن قتيبة:** أي ما يحرف القول عندي ولا يزداد فيه ولا ينقص منه.

قال: لأنه قال القول عندي، ولم يقل قولي، وهذا كما قال لا يكذب

عندي. فعلى القول الأوّل يكون قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]، في المعنى أي: ما قلتة ووعدت به لا بد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور، وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين.

**أحدهما:** أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه.

**والثاني:** أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعييده.

ثم خبر عن سعة جهنّم وأنها كلّما ألقى فيها فوج: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، وأخطأ من قال أن ذلك للنفي، أي ليس من مزيد، والحديث الصحيح يرّد هذا التأويل.

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

**الأولى:** أن يكون أوّاباً، أي: رجّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره.

**قال عبيد بن عمير:** الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها، وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخفاء استغفر منه، وقال سعيد بن المسيّب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

**الثانية:** قال ابن عباس: أن يكون حفيظاً لما ائتمنه الله عليه وافترضه، وقال

قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته.

ولما كانت النفس لها قوتان: قوة الطلب وقوة الامسك، كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب في رجوعه الى الله ومريضاته وطاعته، والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيها.

فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب المقبل على الله بطاعته.

**الثالثة:** قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣]، يتضمن الإقرار

بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد.

ويتضمن الإقرار برسله وكتبه وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعد

ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

**الرابعة:** قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]، قال ابن عباس: راجع عن

معاصي الله، مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ

ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ \* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٤-٣٥].

ثم خوفهم بأنه يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد

منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا

وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله؟

**قال قتادة:** حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدرگًا.

**وقال الزجاج:** طوّفوا وفتشوا فلم يروا محيصةً عن الموت، وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر ذكرى لكم كان قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه تعب ولا إعياء، وتكذيباً لأعدائه اليهود، حيث قالوا أنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه وتعالى في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح: **«لَا أَحَدًا أَصْبِرُ عَلَىٰ أَدْنَىٰ يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»**.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر: وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود، فقيل: هو الوتر، وقيل: الركعتان بعد المغرب، والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلي وأبو هريرة والحسن بن علي، وإحدى الروایتين عن ابن عباس، وعن ابن عباس رواية ثالثة: أن التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد، ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ [ق:٤٢]، بالبعث ولقاء الله: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ﴾

عَنْهُمْ ﴿ق:٤٤﴾، كما تشقق عن النبات، فيخرجون: ﴿سِرَاعًا﴾ ﴿ق:٤٤﴾، من غير مهلة ولا ببطء: ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذا لم يخفَ عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهّار، ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده فهو الذي ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يس:٨٢﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم وعنادهم، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد: ﴿بِجَبَّارٍ فَذَكَّرٌ﴾، برب تجبرهم على الإيمان، والحال كما قال الله عز وجل: ﴿فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ﴿الغاشية: ٢١-٢٢﴾، ﴿فَذَكَّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَى﴾ ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ ﴿الأعلى: ٩-١٠﴾، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿فاطر: ٨﴾، فهذا هو المعنى: لست عليهم بجبار، وكما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ﴿البقرة: ٢٧٢﴾، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

أَعْلَمَ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ [القصص: ٥٦]، وقيل: لا تكن متكبراً عليهم، والمعنى الأول أصح، ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمد: ﴿ بِالْقُرْآنِ ﴾ الكريم الذي أنزله الله عليك، ﴿ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ من يخاف وعيد الله عز وجل ويرجو وعده، أما المعرض فإنه لا يستفيد: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

انتهينا من تفسير سورة ق والله الحمد والممنة.